

العولمة المتنوعة

Globale diversité

- عناصر الكون الأربعة والتنمية المستدامة
- طواف العالم
- ثقافات، أديان، اقتصاد

obeikandi.com

عناصر الكون الأربعة والتنمية المستدامة

les quatre éléments du monde et le développement durable

سجل ألبير كامو Albert Camus في روايته الإنسان المتمرّد^(١): لم يعد بإمكاننا اختيار مشكلاتنا. إنها تصطفينا. فلنقبل إذن أن نكون موضع اصطفاء، تلك هي بالتأكيد المفارقة التي نحن اليوم في مواجهتها.

ثمة حاجة ماسة، اليوم أكثر من أي وقت مضى، في زمن تضع فيه قوى السوق يدها على الكوكب، إلى أن نعرف أي المشكلات تختارنا ونحددنا ونفهمها، وإلى أن نعرف أي تطور وأي تنمية هما الممكنان. إننا نكتشف، على الرغم من الإمكانيات التكنولوجية الخرافية، المعاصرة والمستقبلية، أنه لا يمكن تدارك بعض الخيف الذي يلحق بالكوكب. وأن العناصر الأربعة التي تعدها التقاليد الثقافية الكبرى مكونات العالم، الماء والهواء والتراب والنار، التي هي الطاقة بكل أشكالها، هذه العناصر هي من الآن فصاعداً مواد نادرة، وأتينا معرضون لأوبئة ومخاطر مناخية، وأن المحافظة على الشروط الطبيعية المناسبة للحياة البشرية مرتبطة بالنشاط الاقتصادي.

(١) L'Homme révolté ترجمها إلى العربية نهاد رضا، ونشرتها دار عويدات، بيروت - باريس، الطبعة

الثالثة ١٩٨٣ م. قارن بالترجمة العربية، ص ٩. [المترجم]

إننا نكتشف أن تلك الانتهاكات التي طالت التوازن بين الطبيعة والمجتمعات البشرية أفضت إلى مشكلات إما محلية وإما عامة في النمو والتنمية، فتجد على سبيل المثال أن حالات الثروات الفاحشة تتعايش مع حالات الفقر المدقع، وأن أكثر أنواع القسوة ارتداداً وبربرية هي التي تُسم من الآن فصاعداً المنافسة والمعارك، وأن الدول لا تني تجد نفسها في مواجهة كيانات خاصة، وأن المعارف ليست مرتبطة بالسلطات. وأن فكرة "التنمية" نفسها تبدو كأنها إيجابية وسلبية في الوقت نفسه. ونجد أن "التطور الكبير" العلمي والتقني، المشتطي^(٢)، الذي ليس له على وجه العموم قواعد تضبطه، يتوافق غالباً مع "تحلف" عقلي وأخلاقي، ومع نسيان ما يكون الكائن البشري في تعقيده وفيض وجوده. ويبدو أن إعادة توزيع الثروات في آفاق قانون جديد لحق الشعوب والبشر، بل للعالم أيضاً وللموارد الطبيعية سيكون هو الهدف الأساسي في السنوات القادمة. كيف يمكن الحديث عن "تنمية" بلا فرع ولا هوى، بلا اضطراب ولا نزعة كوارثية؟ إنه لمن الواضح أن الحداثة تثير الارتجاج الذي ينتابها. إن تلك المشكلات التي تختارنا تكبح مهارتنا وإحساساتنا وتحركها.

لقد كان والتر بنجامان Walter Benjamin، وهو مفكر لا نظير له، وعصي^٣ على التصنيف، قد طور تحليلات فاعلة للحداثة قبل أن ينتحر في عام ١٩٤٠م في مدينة بور - بو Port-Bou بسبب عدم تسامح البشر، وعنفهم الذي يطال البحر والأرض والسماء، اختار لوحة الفنان بول كلي Paul Klee المعنونة: الملك الجديد^(٤) لتكون مقدمة لفرضياته حول فلسفة التاريخ:

هناك لوحة لكلي Klee عنوانها الملك الجديد. إنها تمثل ملاكاً يبدو على وشك الابتعاد عما يبدو أن نظره مشدود إليه. عيونه جاحظة، وفمه مفتوح، وجناحه

(٢) segmentarisi.

(٣) Angelus Novus. لوائه لمن العجيب أن يكون أول معرض فني رأيته عتلماً ذهبت للدراسة في فرنسا عام ١٩٨٤م معرضاً للوحات الفنان الموسري بول كلي في مركز جورج بومبيدو للفن المعاصر في باريس. للترجم

مبسوطان. ذلك هو المظهر الذي ينبغي أن يكون عليه ملاك التاريخ. وجهه متوجه نحو الماضي حيث تظهر أماننا سلسلة من الأحداث، إنه لا يرى إلا كارثة واحدة ووحيدة لا تني تراكم أنقاضاً على أنقاض وترميها عند قدميه. إنه يرغب في التوقف، وإيقاظ الموتى، وإعادة تجميع المهزومين. ولكن عاصفة هبت من الجنة ضربت جناحيه، كانت قوية حتى إن الملاك لم يعد يستطيع طيهما. (٢٠) تلك العاصفة تدفعه بلا توان نحو المستقبل الذي يدير له ظهره، مع أن الأنقاض تكدست أمامه حتى بلغت السماء. إن تلك العاصفة هي ما ندعوه التقدم^(٤).

إن ما يفعله الملاك وهو ينشر جناحيه هو أنه يضع نفسه في حالة انسجام مع حرية النكوص والتحفظ، وهي حرية لا تعمد أن تكون مؤلمة ومقلقة، وترفض أن يصل بها الأمر إلى أن يفريها أي معبود سواء كان دينياً أم سياسياً أم اقتصادياً، ومع أنه مدعاة لتحقيق الطمأنينة بوصفه معبوداً أساسياً.

إن حرية النكوص والتحفظ تلك ربما تشبه نار التطهير التي تحرق بلا رحمة المشاعر الخيرة، ونحن نعرف المثل الشعبي الذي يذكر بأن جهنم مليئة بأصحاب المشاعر الخيرة، وعلى وجه الخصوص عندما تتخذ ذريعة للتهرب من عناء التفكير الذي هو في غاية الصعوبة، وعندما يخلط بين كل شيء، ويسهم في الحجر على أي وجه من وجوه النزعة الإبداعية. ألا يسمح التاريخ بتطبيق مفهوم "الشجاعة في الكلام"^(٥) وهو مفهوم يُغليبه حوارِيُ المسيحية القديس بول Saint-Paul، ذلك "الكلام الحر" الذي هو أيضاً "تفكير حر"، أليس هو بذلك مدرسة حرية لا تضاهي؟ إن ملاك التاريخ والتقدم في لوحة بول كلي كما فسرها والتر بنجامان هو أيضاً ملاك التنمية، ولكنها تنمية تعمي مفارقاتها، وليست آلية، ولا واجبة الوجود ولا خارقة. ولن يكون للملاك خيار آخر

(٤) والتر بنجامان، *فرضيات في فلسفة التاريخ*، باريس، ديتويل ١٩٧١م، ترجمة مصححة.

Walter Benjamin, *Thèse sur la philosophie de l'histoire*, Paris, Denoël, 1971, traduction corrigée.

(٥) Parrhésia: مفهوم في البلاغة اليونانية القديمة لا يعني حرية التعبير فقط، ولكن واجب قول الحقيقة من

أجل الصالح العام، حتى لو كان في ذلك خطر شخصي على المتحدث. (المترجم)

إلا خيار الحرية المؤلمة ، وخيار عناء التفكير المؤلم ، وذلك بأن يجعلنا تقتضي أثر تاريخ هو عولمي منذ زمن طويل ، ويتساوى فيه التوسع والإلغاز ، وذلك بدعوتنا إلى أن نأخذ في الحسبان مجموعة من الظواهر ، ولكن أيضاً مجموعة من أقاليم وكائنات ونحيلات فرق بينها وما زال يفرق بينها غالباً الزمن والمكان.

إذا نحن أصحنا السمع لأكثر الأحداث إشكالية فإنه ينبغي أن يتكون لدينا اليوم أكثر من أي وقت مضى إحساس بأن معاصرنا تتمثل أيضاً في أن نعيش في التاريخ ، وأن نستفيد من الثقافات المختلفة ، وأن نقبل الحوار بين العقلانية والوجدان ، وأن نوضح أنفسنا طوعاً في مفاجأة الحياة وعاصفتها. وربما يكون هذا شرط مشاركة هي على الدوام نقدية وإستراتيجية و"إنسانية" حقاً ، إذن ملموسة ، في تنمية العالم والبشر في الأجيال القادمة ، وبالتالي المشاركة في الاستدامة. إن سلوك طريق الماضي لتجاوزه بطريقة أفضل يعني في الوقت نفسه إدماج ما تم تجاوزه وإدماج ما هو صالح ، ولكن مع شيء آخر. لقد أصبحت "التنمية المستدامة" اليوم عنصراً مركزياً في النقاش العام في كل مكان في العالم.

٩- خطر البشر على الماء والهواء والأرض والنار، أمس واليوم

L. L'eau, l'air, la terre et le feu au risque des hommes, hier et aujourd'hui

إن المعرفة المتخصصة التي لا تأخذ في الحسبان إلا التشظي ، التي تقسم ، وتقطع ، وتعزل ، أفرطت في استخدام التجريد دون أن تسعى إلى بناء نفسها حسب السياق. ويبدو أن أبصار الخبراء تعمى عن الأشياء المعقدة ، وعن كل متصور للشامل والأساسي ؛ إذ لا يبدو أنهم يأخذون على الدوام في الحسبان سياقية الأحداث ، والارتباط المتبادل للمشكلات بالزمان والمكان. وقد أذان - بالتحديد منذ الستينيات - العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس Claude Lévi-Strauss في دراسته المقارنة للأساطير الحدود التي رسمتها العقلانية الغربية المجردة ؛ عندما بين كيف أن أساطير تاريخ البشرية تعبر عن عقلانية شمولية ومعقدة ، قادرة على مواجهة الشكوك والتناقضات دون أن تلغيها.

[٢١] تتوافق أساطير الحضارات المختلفة وملاحظتها على حكاية أن البشر، ومنذ البدء، وجدوا أنفسهم في مواجهة العناصر الأربعة الأساسية لحياة العالم وهي: الماء والهواء والتراب والنار، وأنهم سعوا إلى السيطرة على قوة تلك العناصر المخيفة، التي لا يمكن الاستغناء عنها. مثال ذلك ما نجده في الهندوسية، التي تعد على وجه العموم أقدم الديانات البشرية، كما هو الحال في البوذية أو في الأديان التوحيدية الثلاثة، من أن هناك نفساً أولياً يشكل الوسط الذي يستمد منه البشر أنفسهم الخاص وطاقة الحياة لديهم. وإن الآلهة الموغلة في القدم هي آلهة السماء والأرض والماء والنار والجنان هي على الدوام أمكنة توازن تجدد فيها العناصر الأربعة تعبيرها المتواصل؛ وتتمثل على وجه العموم بمحذائق وارفة الظلال تنبعث منها الروائع الذكية، تنتشر في أبحاثها الأشجار والثمار والأزهار، وتجري فيها أنهار صافية ثرة لا تنضب، وفيها طيور وحيوانات مدهشة، وفي خلفيتها سماء مضيئة تجري فيها الأفلاك بلا كلل ولا ملل. ولكن البشر ليسوا أهلاً للبقاء على الدوام متمسكين بهذا التوازن، وينتهي بهم الأمر باستمرار إلى استثارة غضب القوى الأصلية، وذلك بتدمير ذلك التوازن الحيوي بفعل استخدام مختل لحياتهم. لذلك كانت الحقيقة كما أشار إلى ذلك عالم الاجتماع والفيلسوف إدغار موران Edgar Morin مصنوعة من مزيج يتغير على الدوام نظامه وخلله وتنظيمه.

ونجد لدى الإغريق البطل بروميثيوس^(٦) Prométhée الذي شكل أول البشر من الطين، وهو أيضاً الذي سرق نار الشمس التي أرادت الآلهة الاحتفاظ بها لنفسها وأعطاه للبشر الذين لم يعجبوا الآلهة. وكان تقديم القرابين للشمس الموهوبة لأنها تهدد كل يوم بالاختفاء، من أكثر الأمور أهمية في إمبراطورية الأزتيك، يطعمونها قلوب أسراهم من الأعداء ودماءهم. ونجد في الفكر السامي وفكر بلاد الرافدين أن الطوفان والريح المضرر العاتية التي حلت بالبشرية كلها هي بالتأكيد علامة من

(٦) بروميثيوس أحد الجبابرة في الميثولوجيا الإغريقية، ونجد قصته فيها العلاقة بين البشر وآلهتهم أفضل

علامات الانقطاع الكارثي بين الله ، رب الكون ، وبين مخلوقاته. إن التوترات بين الوجود البشري وقوى الطبيعة تسبب حتماً بكوارث عظيمة تتطلب معالجتها كثيراً من الوقت والمشقات. هذا من جانب ، وهناك من جانب آخر عدد لا يحصى من الحكايات الخرافية أو التاريخية حتى وقت قريب تسجل الصراع المرير للوصول إلى السيطرة على الموارد الطبيعية للكوكب. لا يني البشر يريدون تملك موارد الماء العذب ، والأنهار ، والأراضي الخصبة ، والمراعي ، والمعادن الثمينة ، والممرات بين الجبال ، والإطلال على البحر ، ويختصمون حول ذلك كله. وقد احتفظ المؤرخون بذكرى حرب نشبت بسبب الماء في الألف الثالثة قبل الميلاد بين مدينتين من مدن بلاد الرافدين ، ودارت رحاها حول صوى قنوات جر المياه من نهر دجلة. إن إدارة الإنسان السيئة للمخاطر البيئية ، كما برهن على ذلك بوضوح الباحث الأمريكي جاريد دياموند Jared Diamond تسبب في عدد من المرات بزوال الحضارات. لقد اخترع السومريون الزراعة الكثيفة ، وفتحت المجال لظهور أول المدن الكبيرة. وقد وفرت هذه الحضارة الوسائل لإنتاج كميات كبيرة من الحبوب تسمح بإطعام المدن ، وذلك بأن بنت على الفرات سداً عظيماً. ولكنها في الوقت نفسه أوجدت بذلك شروط سقوطها ؛ لأن ظواهر التبخر وزيادة ملوحة التربة تسببت في تراجع كبير في محصول القمح ، فانتقل المزارعون إلى زراعة الشعير الذي يقاوم الظواهر المذكورة أكثر من القمح ، ولكن ذلك كان عبثاً. وعلى العكس مما سبق فإن المجتمع الياباني استطاع في القرن السادس عشر تلافياً انحسار الغابة بتأسيس نظام ضبط محلي ، أوجد توازناً بين الحاجة وإنتاج الأخشاب خلال أكثر من مئتي سنة^(٧). وإنه لمن الملاحظ أن أبطال القصائد الملحمية الكبرى يطمحون على الدوام إلى السيطرة أو إلى امتلاك هذا أو ذاك من عناصر الكون الأربعة ، أو عليها كلها مرة واحدة ، معرضين أنفسهم للمخاطر والهلاك. مثال ذلك أن رواية ألكسندر الرمزية التي نحمد لها

(٧) جاريد دياموند، انهيار. كيف تقرر المجتمعات اختفاءها أو نجاتها، باريس، منشورات غاليمار، ٢٠٠٨م.

Jared Diamond, Effondrement. Comment les sociétés décident de leur disparition ou de leur survie, Paris, Ed. Gallimard, 2008.

نسخاً متتالية في مصر وفي بلاد الإغريق ثم في العالم العربي ولدى اللاتينيين تحكي كيف استطاع البطل الذي أظهر إرادة لا تعرف الانكسار في الغزو حتى تخوم الأرض [٢٢] في أعماق البحر اللججية، أو عنان السماء الذي لا نهاية له دون رغبة ألبنة في وضع حد لما يفعله وانتهى به الأمر بعد أن أغضب القوى السماوية ضحية عبددين بائسين دسا له سماً قوياً أحرق أمعاءه. أما بلييني^(٨) Pline المتقدم، مؤلف كتاب التواريخ الطبيعية Histoires naturelles في القرن الأول قبل الميلاد، وقائد الأساطيل الرومانية، الذي اشتهر بعلمه، فإنه كان منذ تلك الأيام قلقاً من استخدام البشر للعالم. وهو بلا شك واحد من أوائل المؤلفين الذين طرحوا مسألة التنمية من وجهة نظر علم الأخلاق البيئي. وهو يورد التحليل التالي:

كان العلماء فيما مضى لا يأملون في جوائز قيمة: كانوا يسهمون في التقدم الاقتصادي والفني، ويعملون على تعميق المعرفة، ولا يأملون إلا أن يكونوا نافعين للأجيال القادمة. وفي أيامنا هذه تراجعت الأخلاق، وطفى الحس النفعي. فالبشر يفتح أحضانه للبحارة، والشواطئ تفتح ذراعيها لاستضافتهم، ولكن باسم الشراء لا باسم العلم: وبذلك عملت العقول العمياء للبشر المهوسين بشهوة التملك على وضع العلم أيضاً في خدمة الرغبة في الترف.

الأرض طيبة وحنونة ولطيفة، وهي خادِم لا يتعب في توفير حاجات البشر... أي عطر، وأي نكهة، ليس فيها إلا أطيب الأشياء للشراب والطعام، أي لذة في اللمس، وأي ألوان! إنها لا تُخَيَّب ظننا بها البتة في الثروة الموثمة عليها، إنها تُنَمِّي كل شيء لصالحنا... لقد قدمت لنا أدوية لأوجاعنا، ونحن جعلنا من ذلك أسلحة ضد الحياة...

(٨) بلينيوس الأكبر (Caius Plinius Secundus): كاتب ومؤلف روماني كبير. عاش في القرن الأول للميلاد. ولد عام ٢٣ أو ٢٤ ق.م.، وتوفي في ٧٩ م خلال ثورة بركان فيزوف (Vésuve). سمي بلينيوس الكبير للتفريق بينه وبين ابن أخيه بلينيوس الصغير (Caius Plinius Caecilius Secundus). كتب غير كتاب، إلا أن كل ما وصلنا من كتبه هو كتابه الموسوعي المسمى التاريخ الطبيعي (Naturalis historia) ويقع في ٣٧ مجلداً، وقد نقل فيه معارف عصره من علوم طبيعية وعلم نبات وعلم فلك وجغرافيا وغيرها. المترجم.

ونحن على الرغم من كل ذلك نواجه إحسانها بالانكران: فلنكني نعدد طرق المواصلات سواء كان رصيف مرفأ أو برزخاً، إننا نراكم الأرض في البحر أو على العكس نحفرها. وهي في كل لحظة مجبرة على المعاناة من الماء أو الحديد أو النار أو الخشب أو الحجر أو البلور لتكون أكثر استجابة للذاتنا وحاجاتنا في آن معاً. وعلى الرغم من ذلك فإن التعديلات على سطح الأرض محتملة؛ ولكننا نفوس في باطنها نبحت فيها عن عروق الفضة والذهب، وعن طبقات الفضة والرصاص؛ إننا نحفر سراديب عميقة بحثاً عن الأحجار الكريمة وبعض الماسات البائسة؛ إننا تقتلع ليها لكي نستخرج منه جوهرة تزين إصبع من يحفرها... إن كل موارد الثروة تفقدنا إلى القتل والحرب، إننا نسقيها بدمائنا، ونغطي وجهها بمعظامتنا غير المدفونة، وينتهي بها الأمر، وكأنها تود أن تدين جنون القتل لدينا، إلى إخفاء معالم جرائم البشر بموارثها عن الأنظار.

وإن مما أدخله في باب الجحود أيضاً جهلنا بالطبيعة الخيرة الكريمة التي لا تني تتجدد منذ قرون طويلة في حين أن الحرائق والتهديم والانهدامات والسرقات تحرك آثارها السلبية كل يوم في العالم أجمع على الرغم من إفراط البشرية في تبديد ثرواتها. لقد أسرف البشر منذ تأسيس روما في استخدام الثروة السمكية... حتى إنه أصبح من الضروري سن قانون يمنع ممارسة المضاربة على البضاعة واحتكارها... أما اليوم فإن السمك الشائع هو سمك أبي مصفار الذي هو نوع السمك الوحيد الذي يجتر الطحالب ويتغذى عليها... وقد أقام أحد العبيد الذين اعتقهم الإمبراطور كلود Claude، أوبتاتوس Optatus، قائد الأسطول، محميات لسمك أبي مصفال على الشاطئ بين أوستي Ostie والشركة، وأجبر الصيادين على أن يرموا في الماء فوراً سمك أبي مصفال الذي يصطادونه لحماية هذا النوع من السمك. وقد أصبح منذ تطبيق هذا الإجراء متوافراً بكميات كبيرة على الشاطئ الإيطالي.

إننا نهاجم الأرض في صميمها ونستمر في العيش فوق الهاويات التي حفرناها... إننا نجهد أحشاءها، نبحت عن ثرواتها... والحال أنه [٢٣] نادراً ما يكون لبحوثنا هدف طيب. من الإنسان الذي يحفر الأرض ليجد دواء... إن تلك الكنوز

المختفية في أعماق الأرض يحتاج تكوينها إلى زمن طويل ؛ لذلك فإن عقلنا الذي يتأمل في الفراغ ، يعد القرون التي يحتاجها ليستنزف تلك الكتوز... كم ستكون الحياة بريشة وسعيدة ، وكم ستكون بديعة لو أن رغبتنا اقتصرت على ما هو على وجه الأرض ، وعلى ما هو قريب منا^(٩)

إن الأرض في الإشكالية البيئية والاجتماعية في آن معاً ، في الإشكالية التي يطرحها العالم بليني في نصه ، تبدو في مظاهرها المختلفة كما لو أنها كائن حي ، يتمتع بمشاعر أخلاقية ، وبمخصوصية وكرم لا حدود لهما ؛ ونجد بفعل هذه الواقعة أن الأرض في الأسطورة الإغريقية والرومانية هي إلهة ، ولدت كبير الآلهة ، وعرفت كيف تحافظ عليه حياً على الرغم من إرادة والده. ويأسف بليني لأن الإنسان يعمل بهدف التملك والمتعة ، غير مهتم بأي اعتبارات أخرى إلا بأن يكون منطقته القائم على المنفعة متماسكاً ، وبأن لا يكون لاستقلالته أي حد. ليست الأرض فقط مخزناً من المواد الأولية المتاحة بلا أي حد للاستخراج والاستخدام بهدف صناعة منتجات تلبي الرغبات البشرية. يشير العالم ذو النزعة الإنسانية بقلق إلى أن الاستخدام المسرف للأرض يمكن أن يشكل مخاطره في الوقت نفسه طبيعية وإنسانية. عارضاً على قرائه كوارث ممكنة الحدوث ، ويبدو أنه يقصد بعض البطء في النمو الاقتصادي للبشر عندما يوصي بأن "لا نرغب إلا فيما هو قريب منا" ، أي ما تستطيع يدنا الوصول إليه. إن الاستخدام الأمثل للعالم ، وهو هنا احترام ثروات الأرض ، يتطلب إذن كما يرى بليني تفكيراً اقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً في آن معاً.

لنذكر هنا ، وما نقوله سيكون صدقاً لاهتمامات بليني فيما وراء القرون ، ببعض المعطيات الراهنة. تقول الإحصاءات التي أجرتها مجموعة الخبراء البيئية حول التغير

(٩) بليني ، تواريخ طبيعية ، غروتويل ، منشورات جيروم ميون ، ١٩٩٤م. لترجم الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي للمؤرخ بليني الأكبر وذلك عن اللغة اللاتينية أ.د. محمد المبروك الدويب. من جامعة المرقب في ليبيا ، ولم يشر إلى تاريخ نشره المترجم.

Pliny, *Histoires naturelles*, Grenoble, Jérôme Millon Éditions, 1994.

المتناخي^(١٠) المشهورة التي حصلت على جائزة نوبل للسلام بالمشاركة مع آل غور Al Gore عام ٢٠٠٧م إن الأرض هي منذ زمن في طور الاختناق، فـ ٦٠٪ من الأنظمة البيئية^(١١) يجري استغلالها بما يفوق طاقاتها. ويأتي الإنفراط في الصيد على ٧٥٪ من مخزون الثروة السمكية، وقد اختضت في السنوات الخمس الأخيرة ٣٦,٦ مليون هكتار من الغابات، أي مساحة تفوق مساحة ألمانيا. ويصيب سوء التغذية حسب منظمة الفاو (FAO) ٨٥٤ مليون شخص، كما يعاني مليار شخص من ٦,٥ مليار هو العدد الحالي لسكان الأرض من فقر مدقع. وقد ارتفعت في القرن العشرين في الجو كثافة غاز ثاني أكسيد الكربون إلى ما نسبته ٤٠٪، ويمكن أن يكسب معدل درجات الحرارة ٤ درجات في نهاية القرن، مما يقلل من مناطق الحياة والبقاء. وإنه لمن المثبت المحقق أن حقول البترول معرضة للنضوب أيضاً. وإنه لمن المستحيل أن يستمر العالم في استهلاك البترول بالوتيرة الراهنة، وعلى وجه الخصوص إذا تبنى الصينيون والهنود نمط الحياة الغربية. هل سيكون المستقبل هو عالم ينبغي أن تنصارع فيه من أجل الماء والهواء والتراب والنار؟ وإن جهود الحكومات في هذه المجالات كلها ما زالت غير كافية، وهناك مجموعة من المخاطر التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان دون أن نعزف عن التنمية والتطور. وإذا كانت التنمية عنصراً لا يمكن فصله عن السعادة البشرية فإنه ينبغي تحقيقها بطريقة أخرى.

لنأخذ في الحسبان حالتين من بين حالات أخرى. إن التجمع السكاني في مدينة مكسيكو التي يبلغ عدد سكانها عشرين مليون نسمة ينتشر في مضيق يرتفع ٢٠٠٠م عن سطح البحر، تحيط به جبال وبراكين ناشطة، ويجري فيه ٤٥ نهراً. كان ذلك المضيق في الأصل بحيرة ضخمة يتجاور فيها بفضل براعة سكانها الأوائل الماء العذب والمالح، وكانت الأراضي الزراعية تتمم مناطق الصيد والصناعات اليدوية والتجارة. وقد وضع البشر عندما جففوها حداً للتوازن الرائع بين العناصر الأربعة. فظهرت الهزات الأرضية

(١٠) (GIEC) Groupe d'experts intergouvernemental sur l'évolution du climat

(١١) Écosystème = نظام بيئي، وهو وحدة بيئية قاعدية تشكل بالبيئة الحية والحيوانات والنباتات التي تعيش فيها. المترجم

المرتبطة بالنشاط البركاني ؛ والماء الذي جرى جره عبر قنوات مختلط ، وهناك [٢٤] تسرب كبير للمياه العذبة ؛ ويمثل التخلص من النفايات إشكالية ، كما هي حال التخلص من المياه الآسنة ، وانتقال البشر والبضائع ؛ لقد تلوث الهواء بفعل تضخم النشاطات البشرية ؛ والأراضي أصبحت تالفة ومخسوفة. وعلى الرغم من التقدم التقني الخارق الذي حققته المدينة ، وهو تقدم يجعل كل شيء يسير تقريباً فإنها ، شأنها شأن كل التجمعات السكانية في العالم ، معرضة لخطر شامل يمكن أن يأتي على التوازن غير الثابت الذي تكاد المدينة تبلغه. إن واحدة من الهزات الأرضية القادمة ، إذا توافقت بعواصف عاتية وأمطار غزيرة ومستمرة فإنها يمكن أن تسبب عطلاً كهربائياً ، وانقطاع قنوات جر مياه الشرب وقنوات تصريف المياه الآسنة ، وتسرب الهيدروكربورات في أنظمة معالجة المياه ، وارتفاع منسوب الماء المختلط إلى ارتفاع طابق واحد في عدد كبير من أحياء المدينة مما يمكن أن يهدد حياة السكان. إذاً ، ينبغي التحسب لعدد من الأخطار دون أن ننسى هنا أيضاً أهمية تأهيل الأشخاص الذين يسكنون المدينة وتحفيزهم. هناك أفكار وأفعال إنسانية ينبغي تجهيزها ، بوصفها متمما لا يمكن الاستغناء عنه لأكثر أنواع التقدم التكنولوجي فعالية في الشركات المختصة في هذه المجالات ؛ تلك الأفكار وتلك الأفعال هي في صلب الاهتمامات الحقيقية للشركات والمؤسسات. وتسمى مدينة مكسيكو ، شأنها شأن السلطات في الحكومة ، بحزم لتحقيق ذلك.

في فبراير شباط عام ٢٠٠٨م اجتاحت نصف الصين عاصفة مطرية وثلجية لم تشهد لها البلاد مثيلاً من قبل. وقد أصاب الشلل قسماً كبيراً من البلاد ، فأصبحت محرومة من التدفئة والكهرباء ، ومن أنواع المون المختلفة ، ومن وسائل الانتقال. وقد وجد ملايين الأشخاص الذين كانوا يودون الذهاب إلى الأقاليم التي فيها مسقط رأس كل واحد منهم للاحتفال بالسنة الصينية الجديدة ، وجدوا أنفسهم ، محجوزين في محطات القطار بلا أي مساعدة أو أي إمكانية نقل. لقد تجلّى بوضوح أن نمو البلاد الذي يسهم إسهاماً ملحوظاً في المشكلات العامة للتغير المناخي ، وفي التلوث ، وفي أزمة الغذاء والطاقة ، هذا البلد ، لم يستطع إدماج هيئات قادرة على إدارة الحالات الطارئة.

وقد سبق ذلك في عام ١٩٩٨م الفيضان الكبير لنهر يانغتسي Yangtsé ، وفي عام ٢٠٠٣م الأزمة الصحية التي سببها فيروس الالتهاب الرئوي الحاد SRAS وهي أزمة جعلت السلطات السياسية تفكر في إنشاء مكاتب خدمات شعبية تقوم على أسس فاعلة. ويذكر المراقبون أن الحكومات المحلية اكتفت بالحفاظ على استتباب الأوضاع ؛ واتضح أن النظام التسلسلي هو نظام موغل في الصرامة. وخصوصاً أن السمة الغالبة كانت الغياب التام لأي شكل من أشكال المساندة والمساعدة غير المؤسساتية سواء كانت تعاونية أو شعبية. ولا يمكن لأي خطر طبيعي أن يقدر حق قدره منفصلاً ، وعلى وجه الخصوص دون أن يؤخذ في الحسبان ضرب من المخاطر الأخلاقية الخالصة المتمثلة في عدم وضع أسس تأهيل الأشخاص الذين ينبغي عليهم أن يتولوا الإدارة التقنية لتلك المخاطر وتخفيفهم. وقد لاحظ عدد من المراقبين أن الفاعلية في إدارة المخاطر الطبيعية مرتبطة بمصادقة مواطني البلد على تلك الإدارة ، وبافتخارهم بأن يكونوا ، هم أنفسهم ، صانعي تميمتهم المستدامة.

كيف يمكن للحكومات أن تتدخل في هاتين الحالتين ، كيف يمكن أن يتشكل لديها وعي بضرورة التوازن بين عناصر الكون الأربعة ؟ إن المكسيك ، وعلى وجه الخصوص مدينة مكسيكو ، ومنذ الأربعينيات ، مع جمعية الحفاظ على الأرض والماء^(١٢) تولي البيئة اهتماماً كبيراً. وقد اكتسب موضوع الفوضى البيئية منذ الثمانينيات أهمية كبرى. وفي عام ١٩٨٢م استحدثت وزارة بمسمى : الأمانة العامة لإحياء المدن ييشياً^(١٣) ، المشكلة للجمعية الفيدرالية للحماية من الأميانت^(١٤) وفي عام ١٩٨٨م تمت المصادقة على الجمعية العامة للتوازن البيئي والحماية من الأميانت^(١٥). وفي عام ١٩٨٩م استُحدث المجلس الوطني

(١٢) Ley de Conservación de Suelo y Agua

(١٣) Secretaría de Desarrollo Urbano Ecológico (SEDUE)

(١٤) Ley Federal de protección al Ambiente

(١٥) Ley General del Equilibrio Ecológico y la protección al Ambiente (LEEGEPA)

للمياه^(١٦)، وهو سلطة فدرالية في مجال المياه وحماية الأحواض المائية ومراقبة معالجة المياه. وفي عام ١٩٩٤م استحدثت وزارة البيئة والموارد الطبيعية والثروة السمكية^(١٧) وأنيطت بها مهمة التوفيق بين المنظورات الاقتصادية [٢٥] والاجتماعية والبيئية. وفي عام ٢٠٠٠م عُذِّل مسمى تلك الوزارة إلى مسمى: أمانة البيئة والموارد الطبيعية^(١٨) من أجل إيلاء اهتمام أكبر لسياسة وطنية لحماية البيئة، وتمثلت واحدة من اهتمامات تلك الوزارة في صياغة فكر وفعل يأخذان في الحسبان الإنسان لديها، وعلى حل مسألة احتياجاتها الهائلة للطاقة فإن تلك الدولة استحدثت وزارة للبيئة. وفي جانب آخر تقوم من الآن فصاعداً في المركز الفرنسي - الصيني للبيئة والطاقة شراكة بين المدارس الفرنسية للمهندسين وبين جامعة تسينغهوا Tsinghua في مدينة بكين، وهي واحدة من أعرق جامعات الصين. ولكن المراقبين يشيرون إلى أنه لم يثبت حتى الآن أن الصين تقبل بأن تدفع من أجل التنمية المستدامة. ونشر إلى أنه في عام ٢٠٠٨م حُكِمَ على أحد الأغنياء الصينيين لوو زهونغفو Luo Zhongfu، مدير شركة عقارية بالسجن الفعلي عشر سنوات ونصف بسبب أنه خالف القانون عندما أمر بقطع الأشجار في أرض مخصصة لمشروع عقاري طموح ومريح، وبمخالفة مالية قدرها ٥٠٠٠ آلاف يورو بسبب اجتثاث الأشجار والاستخدام غير القانوني للأراضي الزراعية والتعدي على العدالة.

وبذلك يكون اليوم، كما كان على الدوام، الأمر الضروري بذاته بسيطاً. إن اقتصاد القرن الحادي والعشرين لن يكون بالإمكان بناؤه دون تأسيس علاقات توازن بين الإنسان وعناصر الكون الأساسية الأربعة. وإن التعديلات الحاصلة على هذه العناصر تهدد بخطر سلام الإنسانية ومستقبلها. وما نرعى إليه في سياق القرن الحادي والعشرين الذي سيشهد ارتفاع عدد البشر إلى تسعة مليارات نسمة في عام ٢٠٥٠م هو البحث عن

(١٦) Comisión Nacional del Agua.

(١٧) Secretaría de Medio Ambiente y Recursos Naturales y Pesca (SEMARNAP).

(١٨) Secretaría de Medio Ambiente y Recursos Naturales (SEMARNAT).

مصادر طاقة جديدة ومتجددة، وابتكار خواص اقتصاد إعادة الاستخدام والتدوير، وتعدد جوانب التجديد في الصراع ضد هدر المواد النادرة. إن هذا هو ثمن الحياة. إنه لمن المؤكد أنه لا يمكن إهمال المعطى القائل: إن الموارد الطبيعية محدودة، وإنه من المستعجل أن نتعلم أن هناك ثمنًا للحصول على ما هو نادر وقيم، وأن نبتدع شيئاً أخرى للنمو. إن الميزة الكبرى لفهوم التنمية المستدامة الذي جرى استخدامه لأول مرة عام ١٩٨٠م^(١٩) هو أنه يدرج في منظور أشكال اتخاذ القرار لدى أساطين الاقتصاد، ليس على المدى القصير فقط وإنما في الوقت نفسه على المدى الطويل والطويل جداً أيضاً، ليس على المستوى الاقتصادي فقط وإنما اليشي والاجتماعي أيضاً. لقد أعطى التقرير المسمى: من أجل مستقبل مشترك الذي صدر عام ١٩٨٧م، واشتهر أكثر باسم تقرير بروندتلان الذي يجمع الأعمال التي جرى تنفيذها في نطاق اللجنة العالمية للتنمية والتنمية^(٢٠) التي تشكلت عام ١٩٨٣م في نطاق هيئة الأمم المتحدة برئاسة رئيس الوزراء النرويجي غرو هارلم بروندتلان Gro Harlem Brundtland، هذا التقرير أعطى تعريفاً للتنمية المستدامة. إن التنمية المستدامة تحيل في المقام الأول إلى منطق تشترك به الأجيال لأنها معرفة بوصفها إجراء "يسعى إلى الاستجابة للاحتياجات الرائة دون أن يعرض للخطر قدرة أجيال المستقبل على تلبية احتياجاتها". والمقصود من الآن فصاعداً توقع نتائج أفعالنا خمسة وعشرين بل خمسين بل خمسة وسبعين عاماً، إذا كنا نأخذ في الحسبان أن ما نسميه جيلاً يمتد خمسة وعشرين عاماً على وجه التقريب. ونجد في المقام الثاني أنه اتسع في مفهوم رأس المال. إذ ينبغي أن ندرج في كل خطوة من خطوات التنمية

(١٩). العبارة المذكورة في البرنامج المعلن: إستراتيجية الحفاظ على العالم World Conservation Strategy: Living Resource Sustainable Development الذي اشترك في التوقيع عليه الاتحاد العالمي للحفاظ على الطبيعة Union internationale pour la conservation de la nature (IUCN)، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة le programme des Nations Unies pour l'environnement (PNUE) والمنظمة غير الحكومية: الصندوق

العالمي للحياة البرية (WWF) ONG World Wildlife Fund.

(٢٠) Commission mondiale sur l'environnement et le développement (CMED).

المستدامة ثلاثة أبعاد: الاقتصادي والبيئي والاجتماعي، مما يعني أن نمو مجتمع ما لكي يكون مستمراً في الزمن يفترض الإنتاج وتوسعة الأبعاد الثلاثة لرأس المال المخزون: يتكون رأس المال الاقتصادي من الكوادر والبنى التحتية والتكنولوجيا والمهارة، ويتكوّن رأس المال البيئي من كل الموارد الطبيعية التي يرثها جيل ما، أما رأس مال العدالة الاجتماعية فيمكن تشبيهه بعملية دمج مجموع الأفراد في المجتمع مما يقتضي إعادة توزيع (٢٦) في الحد الأدنى على الأقل للثروات التي تُنتج في نطاقه. إن هذا القطع المزدوج: التوسع في الأفق الزمني، والتوسع في مفهوم رأس المال يجعل عملية التقويم الاجتماعي واتخاذ القرار عملية معقدة جداً. ينبغي العزوف على المدى القريب عن قسم من ثلينة الاحتياجات فترفع الأصول النقدية. ويشكل ذلك ثورة ثقافية حقيقية. وتكمن كل الصعوبة في أن نعرف كيف نتصرف وبأي سرعة نفعل ذلك.

لقد دعا الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك Jacques Chirac في الثاني من فبراير "شباط" عام ٢٠٠٧م إبان مؤتمر باريس من أجل إدارة بيئية عالمية إلى "ثورة في الضمائر والاقتصاد والفعل السياسي". ولكن ضغوطات المدى القريب تتعارض غالباً مع موجبات المدى البعيد، والسوق لا يأخذ في الحسبان مصير أجيال المستقبل في وضع الأسعار، وإن العولمة والتجارة هما في صراع مع حماية البيئة. كيف يمكن تشجيع انتشار التكنولوجيات النظيفة، والعناية بالغابة التي هي رئة الإنسانية، وتجديد موارد صيد الأسماك، وحماية التنوع البيولوجي، وتنظيف المياه، وتنقية الهواء، والسعي إلى إيجاد طاقات بديلة؟ لن يستطيع الإنسان إذا تجاوز حدود عتبة معينة أن يوجد ثروة على كوكب يتعرض لتلف شديد.

وينشر البنك الدولي من الآن فصاعداً في كل سنة إحصاءات تتعلق بالنسب العالمية لإطلاق الكربون أو ثاني أكسيد الكربون CO_2 . وإنه لمن الملاحظ أن المكتب التنفيذي لآلية التنمية النظيفة^(٢٧) التابع لبيئة الأمم المتحدة لم تعد لديه الإمكانيات

اللازمة لمواجهة تشظي البرامج. وآية ذلك أن حجم المبادلات ارتفع من ٣١,٢ مليار دولار عام ٢٠٠٦م إلى ٦٤ مليار عام ٢٠٠٧م. وهناك أكثر من ٢٠٠٠ برنامج تنتظر أن تخصص لها الاعتمادات اللازمة. وتظل الصين للسنة الثالثة على التوالي المستفيد الأول من الـ (MDP) (آلية من أجل تنمية نظيفة)؛ لقد استفادت بكون من ٧٣٪ من الوحدات المخصصة للتخفيض المؤكد لإطلاق الكربون (URCE) التي تم تسويقها في العالم عام ٢٠٠٧م. وقد تولدت هذه المخصصات جوهرياً عن عمليات تفعيل في الطاقة، وتغيير في المواد المحروقة (٤٠٪) وعن تمويل مشاريع الطاقة المتجددة (٢٤٪). وإنه لمن المعلوم أن كل تلك العمليات، بوصفها صيفاً جديدة للنمو المستدام، تقدم منظورات اقتصادية ضخمة. وقد قرر البنك الدولي في جانب آخر إنشاء صندوق استثماري في مجال المناخ. يسمى الأول "تقنية نظيفة"، ويقدم تمويلًا جديدًا على نطاق واسع من أجل إقامة مشاريع تقنية تقوم على إطلاق أقل نسبة ممكنة من ثاني أكسيد الكربون. ويسمى الثاني "الصندوق الإستراتيجي من أجل المناخ"، وهو يمول البرامج التجريبية حول الطرق المبتدعة للتعامل مع التغير المناخي.

إن دور المنظمات غير الحكومية في مسألة الوعي بأهمية التنمية المستدامة هو دور في غاية الأهمية. لذلك قامت في هذا السياق في يونيو "حزيران" ٢٠٠٨م المنظمات غير الحكومية الأوروبية بتقديم شكوى لمجلس أوروبا ضد بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبولونيا وسلوفانيا وإسبانيا وإيطاليا؛ لقد أخذوا على هذه الدول أنها لا تلتزم بضرورة إعلان مقدار استهلاك الكربون وإطلاق ثاني أكسيد الكربون CO_2 على دعايات السيارات المطبوعة من أجل المستهلكين عند تسويق السيارات الخاصة الجديدة.

يمكن للشركات التي تنخرط في التنمية المستدامة أن تسهم إسهاماً نفسياً في هذه "الثورة الثقافية". مثال ذلك أن مجموعة سويسز Groupe Suez أصبحت اليوم واحداً من الأساطين الرئيسيين "للاقتصاد التدويري" بأن قامت بتحديد مكبات النفايات التي يمكن إعادة استخدامها وتدويرها لتعيد منها إنتاج مواد أولية ذات جودة عالية يعاد إدماجها في دورة إنتاج منتجات جديدة. أما النفايات التي لا يمكن

إعادة استخدامها ولا تدويرها فيمكن استخدامها لإنتاج الطاقة. وبذلك يمكن السيطرة على الآثار التي تتركها في البيئة. وبذلك تصبح إدارة النفايات ورقة رابحة للاقتصاد والبيئة وتسهم في إدارة متوازنة وضرورية لعناصر الكون الأربعة التي أصبحت ثروة نادرة وقيمة.

[٢٧] لقد غنى المغني جاك دوترون Jacques Dutronc ثلاثين سنة خلت أغنية تقول:

سبع مئة مليون صيني، وأنا وأنا وأنا، تلك هي الحياة، تلك هي الحياة
ويستقر في أفهامنا من الآن فصاعداً أنه ليس هناك إلا كوكب واحد، وأنا إذا
أردنا الاستمرار في الحياة فإنه ينبغي أن تقوم جماعة مؤلفة من الحكام والمواطنين
والشركات بتحمل مسؤولية الحياة.

٢- حركة الحياة

II. La vie en mouvement

كيف يمكن تحمل مسؤولية الحياة؟ إن الذكاء المقسم المقطع يحطم القيم المشتركة في العالم، يجزئ المسائل، يفرق ما هو مترابط. إنه يحطم كل إمكانيات الفهم والتفكير، إنه مذل. وإن الملاحظة القديمة التي أبداها كل من أوريللو بيكيشي^(٢٢) Aurelio Peccei وديساكو إيكيدا^(٢٣) Daisaku Ikeda تتأكد في كل يوم:

إن المقاربة الاختزالية التي تتمثل في الاعتماد على سلسلة واحدة من العوامل لحل كل المشكلات التي تطرحها الأزمة المتعددة الأشكال التي تتجاوزها حالياً هي حل لا يرتقي إلى مستوى المسألة^(٢٤).

(٢٢) صناعي إيطالي، في مجال السيارات (فيات، إيطاليا، أوليفيتي) (١٩٠٨ - ١٩٨٤م)، أسهم في عام ١٩٦٨م في تأسيس نادي روما. المترجم

(٢٣) مثقف وفيلسوف وشخصية دينية يابانية، ولد عام ١٩٢٨م في طوكيو، له مشاركات في مجالات عديدة، وهو عضو في نادي روما. المترجم

(٢٤) صرخة تحذير من أجل القرن الحادي والعشرين، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٨٦م.
Cris d'alarme pour le 21e siècle, Paris, PUF, 1986.

إن علاقة الإنسان بعناصر الكون الأربعة، وبطبيعة الكون لا يمكن تصورها تصوراً مجزأً؛ فالكائن البشري مترسخ، في الوقت نفسه، في الطبيعة الحية والفيزيائية للعالم، إنه ينبثق عنها ويتميز منها بضميره وثقافته؛ وإن كمنونه الحيوي مرتبط إذن بقدرته على الربط بين المعارف المجزأة.

وإنه لمن الملاحظ أن الفكر الصيني القديم^(٢٥) اختار، عن علم، الإعراض عن النشاط والمعرفة التي حكم عليهما بأنهما لا غاية لهما، وهما بالتالي تضران بالطاقة والحيوية، واكتفى بالتركيز على قدرة الكائن البشري على إظهار كمنونه الحيوي والحفاظ عليه. وعرف أحد أهم مفكري الطاوية، الحكيم زهوانغزي^(٢٦) Zhuangzi، انطلاقاً من ذلك، الطبيعة البشرية بأنها الحياة بالمعنى الحصري في مواجهة أي تشيع في التصرف الإنساني لأي نظام مهما كانت درجة سموه. إذن، ترجع إلى كل إنسان مسؤولية إغناء الحياة، حسب العبارة التي استخدمها الحكيم الصيني، بالمسؤولية واليقظة. ولكن ماذا يعني قوله: إغناء الحياة، وما شرط الحياة؟ إن زهوانغزي يروي بطريقة موحية كل الإبحاء القصة التالية. اكتشف الحكيم كونفوشيوس بدهشة أن رجلاً نجا من مسقط ماء ضخم ومريع كان قد سقط فيه، واختفى، فطرح عليه سؤال طاو^(٢٧): ما الطريقة التي اتبعها

(٢٥) قازن بفرانسوا جوليان، تغذية حياته على هامش السعادة، باريس، سوي، ٢٠٠٥م.

Cf. François Jullien, *Nourrir sa vie à l'écart du bonheur*, Paris, Seuil, 2005.

(٢٦) ولد في بلاد الصونغ (هينان الحالية) نحو عام ٣٦٩ ق.م، ومات عام ٢٨٦ ق.م. بنى أفكاره على المجرد وغير

المفهوم، وغامر بعزم وتأن فيما وراء المدرك، فكان بذلك أول فيلسوف صيني حقيقي. وقد أسس تفكيره على النصوص الصوفية التي جمعها تحت اسم وهمي أسطوري هو (لازومي) أكثر من اعتماده على حكايات المدرّسين القديمة التقليدية وطقوسها. وفي هذه النصوص الصوفية ذكرت مضاعف الطريق والإلهام والكائن واللاكائن. إلا أن رسالته ذات المعاني المعقدة لم يكتب لها البقاء. انظر: تاريخ الصين، تأليف دانييل ألسيف،

ترجمة يوسف شلب الشام، نشر وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠٧م، ص ٣٤-٣٦. المترجم

(٢٧) Son tao: طاو، والطاو في اللغة الصينية هو الصراط. وقد نما الطاو عند لا وتسه وتلامذته فأصبح هو المبدأ والمآل. المبدأ الذي تأمّن منه كل الأشياء، والمآل الذي تترد إليه كل الأشياء. والطاو هو أيضاً القانون الطبيعي أو الكيان الذاتي للأشياء. انظر كتاب الطاو، هادي العلوي، الأعمال الكاملة ٤، دار

المدى، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٧م، ص ١٣. المترجم

للنجاة، وللنجاح في تجاوز عنف الماء الهائج؟ فأجاب الرجل حيثنذ بأنه لا طاوله: لم أفعل أي شيء إلا اتباع طاول الماء وليس لدي أي سر خاص آخر... وآية ذلك أن الرجل اقترب بطاول الماء ممثلاً لتردداته ومع حركته، لقد ترك التيار يشهق به ثم يزفره. لقد أسلم نفسه لحيوية مسقط الماء في كل أبعادها، دون أن يبدي أي مقاومة لذلك لم يلحق به أي ضرر. وبذلك لم يفعل الرجل شيئاً آخر إلا أنه تحرك دون أن يستنفد حيويته^(٢٨) ودون أن يكون عليه التدبير والقيادة. ولا تتعلق المسألة هنا إلا بحركة الحياة وحدها بوصفها حفاظاً على الحياة في مواجهة مشكلة تتضمن ضرورياً من الانقطاع وفقدان التوازن والتشكيك. كان يمكن لعقلانية مجردة ووحيدة البعد أن تتسبب بموت الرجل في حين أن عقلانيته المفتوحة في حوار منفرد مع واقع مسقط الماء السحيق طورت كمونه الحيوي.

[٢٨] ويضرب لنا زهوانغزي مثالاً دالاً آخر. إن وصفه الرائع للجزائر الذي يذبح الثيران بسهولة بساطوره^(٢٩) يجعلنا نفهم ضرورة أن يظل الإنسان تطورياً، وأن يدير

(٢٨) ساق قصة زهوانغزي فرانسو جوليان، مصدر سابق، ص ٨٩ - ١٠١، ونجد أيضاً في كتاب الأستاذ التاوي، لي زي: في الفراغ التام، باريس، منشورات ريفاج، ١٩٩٩ م.

Lie Zi, Du vide parfait, Ed. Rivages, 1999.

(٢٩) جاء في كتاب التاو، م. س، ص ١٥٧ - ١٥٨: كان طباح الأمير ون هوي يتصب ثوراً: كل ضربة من يده، كل رفعة من كتفه، كل دوسة من قدمه، كل لومة من ركبته، كل صوت من اللحم المقصوب، وكل دقيقة من دقائق حركة التقصاب كانت نجي. في توافق تام، موزونة كأنها رقصة الحدود الثوت^٣، تلفافية مثل أوتار تشينغ شوو.

قال الأمير: مدبش هكذا فلك الكامل يكون.

فالتقى الجزائر ساطوره وعقب: ما يحبه خادمك هو التاو، الذي هو أكثر تقدماً من الفن. لما بات لأول مرة تقصيب الثور كان ما رأيته بساطرة هو الثيران كلها. ثلاث سنوات من العمل لم أر المزيد من الثيران. وأنا اليوم أشتغل يدعني لا بعيني، توقفت وظائف إحساسي وتغلقت روحي... متعباً عروقي الطبيعية ينزل ساطوري خلال التجاويف الكبرى والفتحات الكبرى مستفيداً مما هو حاصل بالتسام. لا أتنصى العروق المركبة وتفرعاتها والترايطات ما بين اللحم والعظم تأميك عن العظام الكبرى. الطباح الجيد يبدل ساطوره مرة في العام لأنه يقطع. الطباح العادي يبدله كل شهر لأنه يحز. وساطوري مر عليه تسع عشرة سنة. وجزرت به هذه الوف من الثيران وما زال حاداً كأنما جيء به من السن تواء. تحتوي الأوصال دائماً =

إمكانيته الكامنة بالقوة مهتدياً باستمرار إلى سبيل لا تعيقه ولا تسد المسالك في وجهه ، وهي الطاو ، دون تبديد ولا مقاومة مفرطة.

وإن المقصود هو أن يضع المرء نفسه في حالة امتثال للواقع ، وهي هنا ضخامة الثيران المفيدة لتغذية البشر دون أن غارس العنف عليه ، محترمين أشكاله وقوته. ذلك هو شرط الحياة.

وفي العصر نفسه تقريباً يلح الفيلسوف الإغريقي أفلاطون Platon في حوار طيمايوس^(٣٠) على أهمية أن يتصالح الكائن البشري مع حركات الكون ؛ لأن الكون الذي يرى أن كماله سماوي يمثل غمطاً لا يمكن للإنسان أن يستغني عنه :

لن نستطيع تثبيت الحركات التي لا تني تتقل فينا من مكان إلى آخر إلا بعد أن ندرس دراسة معمقة الحركات السماوية ، وبعد أن نكتسب مهارة حسابها حساباً صحيحاً بالتطابق لما يحدث في الطبيعة ، وبعد أن نحاكي حركات الإله ، وهي حركات لا تضل ألبته^(٣١).

إن الحركات التي تُمتُّ بصلة قرابة للجانب السماوي فينا ، هي أفكار الكون وانتفاضاته. تلك هي الحركات التي ينبغي على كل فرد بالاتفاق معها ، عبر دراسة معمقة لإيقاعات الكون وانتفاضاته ، وتقويم الانتفاضات التي فقدت توازنها في رأسنا عند ولادتنا ، ينبغي ، أن يعيد الحركة التي تتأمل تلك الانتفاضات التي تشبه ما هو

= على صدوع وحافة الساطور بلا سملك إن أولجنا ما ليس فيه سملك فيما فيه صدوع تكن له فسحة كافية للتحرك على أي إذ أصل إلى شلو معقد وأجد بعض الصعوبة أو اصل بلا حماس وبلا حيلز. أثبت عني فيه. أتحرك على مهل ثم ، وبحركة في منتهى الرفق من ساطوري ، بتفصيل الشلو بسرعة مثل تراب يثقت فوق الصعيد. بعدها أجبل النظر واقفاً والساطور في يدي مفعماً بنسيم الرضا والنفوز ، ثم أمسح ساطوري وأضعه في قرابه. عقب الأمير: هائل. لقد تعلمت من كلمات هذا الطباخ وسائل تهذيب الحياة. (المترجم)

(٣٠) طيمايوس : *le Timée* : أحد حوارات أفلاطون يصف فيه خلق العالم من لا شيء. (المترجم)

(٣١) أفلاطون ، *تيمي* ، ٤٧ ب٦ - ٤ ج٤.

متأمل بالعودة إلى حالته الطبيعية السابقة، ويعد تحقيق ذلك التشابه أن يدرك هدف الحياة الأسمى الذي تقدمه الآلهة للبشر من أجل الحاضر والمستقبل^(٣٢).

إذا كان "حساب" الحركات السماوية يبدو مترافقاً بالضرورة مع "محاكاة حركات الله"، ويحيل إلى عقلانية من نمط تجريدي "تثبيت الحركات التي لا تنقل فينا من مكان إلى آخر" فإنه يحيل عبر تقيضه نفسه إلى تلك العقلانية المفتوحة التي لا تعدم التذكير بطريقة تصرف الشخص الذي يترك مسقط الماء يأخذه على مرأى من الحكيم كونفوشيوس. فالكائن لا يكون كائناً إلا إذا كان متناغماً مع الكون. ويضيف أفلاطون أن ذلك "التشابه" للذات مع "الحركات التي لا تفضل أبته" للكون الإلهي تنضوي تحت لواء البحث عما يسميه "الحياة الأسمى التي تقدمها الآلهة للبشر من أجل الحاضر والمستقبل". إذن، إنه لمن المناسب للإنسان أن "يمر" عبر الكون. ويؤكد أرسطو Aristote هو أيضاً، في كتاب أقسام الحيوان، ودون أن يعزو السلوك البشري إلى نسق مفارق، أن تأمل الطبيعة يورث "لذة لا يمكن التعبير عنها" لمن يتقن فن التأمل، أي التوضع وموضعة كل كائن في المخطط العام للطبيعة^(٣٣).

ويعد عدة قرون يتردد صدى ما قاله أرسطو لدى شيشرون Cicéron في كتابه، لوكوللوس: الأكاديميات الأولى^(٣٤):

إن احترام الطبيعة وتأملها هي كالغذاء الطبيعي للأرواح والعقول، إنهما يقوماتنا ويسموان بنا، إنهما يجعلاننا ننظر إلى الأشياء البشرية من عل؛ إن أفكار

(٣٢) أفلاطون، نيمي، ٩٠ ج ٧ - ٧٥.

(٣٣) أرسطو، أقسام الحيوان، ١، ٥، ٦٤٤ ب ٣١.

Aristote, Parties des animaux, I, 5, 644b 31.

(٣٤) موضوع كتب الأكاديميات لشيشرون هو عرض الجدل الذي أثاره ظهور أكاديمية جديدة في الفلسفة، وهناك الأكاديميات الأولى والأكاديميات الثواني، وقد أطلق عليهما اسم واحد هو لوكوللوس، ولم يصل إلينا من الأكاديميات الأولى إلا الجزء الثاني، وبعض الثواني. ولوسوس لوسينيوس لوكوللوس Lucius Licinius Lucullus (١١٥ ق.م - ٥٧ ق.م): رجل دولة وجنرال روماني. سمي شيشرون كتابه باسمه. (المترجم)

الكائنات السامية والأشياء السماوية بعبلائنا نحتقر أفكارنا لأنها أفكار بسيطة ومحدودة^(٣٥).

وإن واحداً من كتب المسيحية المقدسة ، أعمال الرسل *Actes des Apôtres* مخصص بتعامه للرحلات المتتالية التي قام بها الرسل في عالم البحر الأبيض المتوسط تلهمهم في ذلك شعلة الروح القدس [٢٩] برأً وبحراً لنشر تعاليم رسالة سيدهم في القرن الميلادي الأول قائلين : لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد (أعمال الرسل ، ١٧ ، ٢٨)^(٣٦).
إن الرابط المشار إليه هنا بين المفاهيم الثلاثة : الحياة والحركة والوجود ، في إطار سرد لقصاص الرحلات ، متوازن مع عناصر الكون الأربعة ، هو بالتأكيد رابط جدير بالملاحظة.

وفي أزمنة أخرى وأمكنة أخرى من تاريخ العالم نجد الحكيم الفارسي حي بن يقظان بحث الفيلسوف ابن سينا خلال لقاء تدريبي على الاستكشاف العقلي للكون^(٣٧). إن العين الخائرة التي يدعو الحكيم الفيلسوف إلى أن يغتسل فيها تمنحه القوة ليجوب العالم ، والمعني بدقة هو أن يضع معارفه بوصفه فيلسوفاً في سياقها الصحيح ، وأن يفهم تعقيدات الحياة ، ويعيش حياته ويوجهها. يقول الحكيم :
... وأما حرفتي فالسياحة في أقطار العوالم حتى أحطت بها خبراً... ثم إنني استهديت هذا الشيخ سبيل السياحة استهداء حريص عليها مشوق إليها فقال : ... ومما يفيد الغتسال في عين خرازة في جوار عين الحيوان الراكدة إذا هدي إليها السائح

(٣٥) شيترون ، لوكوللوس ، الأكاديميات الأولى ، ٢ ، ٦١ ، ١٢٧ ، في : الرواقيون ، باريس ، غاليمار ، ١٩٦٦ م ، ص ١٤٦ - ١٤٧.

Cicéron, Lucullus, Premiers Académiques, II, XLII, 127, dans Les Stoïciens, Gallimard, 1962, p. 146 - 147.

(٣٦) العهد الجديد ، أعمال الرسل ، الترجمة العربية ، ص ٢١٠. (الترجم)

(٣٧) يقول هنري كوريان في كتابه (ابن سينا والحكاية التبتية ، باريس ، بيرغ أنترناسيونال ، ١٩٧٩ م ، ص ١٥) :

إن كاتب هذه القصة هو الجوزجاني تلميذ ابن سينا المخلص.

Henry Corbin, Avicenne et le récit visionnaire, Paris, Berg International, 1979, p. 13.

فتظهر بها وشرب من فرائها سرت في جوارحه مئة مبتدعة يقوى بها على قطع تلك المهام، ولم يترسب في البحر المحيط...^(٣٨)

وفي وقت لاحق ينضوي الفيلسوف والمتصوف المسيحي لويس دوليون^(٣٩) Luis de león تحت لواء المنظور نفسه، عندما يروي في كتابه في أسماء المسيح Du Noms du Christe الذي كتبه في سلمنقة^(٤٠) Salamanca نحو عام ١٥٨٥ م قصة شديدة الشبه بقصة زهوانغزي أو قصة لي زي. خرج ثلاثة من الرهبان من ديرهم، ومن المدينة التي يسكنونها، وكانوا يتجاذبون بسلام أطراف الحديث على صفة أحد الأنهار. وفجأة لاحظوا أن صقرين يتهيآن للانقضاض على عصفور صغير. ولكن العصفور الصغير استطاع الإفلات من مطارديه بأن غاص في أمواج النهر العاتية واختفى فيها. ولم يكن أمام الصقرين المغتاظين إلا أن يوليا الأدبار. أسف الرهبان ويكوا العصفور. ولكن هاهو يظهر من جديد ممثلاً بالحياة. لقد عرف عندما كان مهدداً بالموت كيف يتوافق مع إيقاع النهر، ونسي السمة المزعجة لهذا العنصر. لقد أدرك بفضل علاقته الحميمة مع العنصر، ومع سيرورته الطبيعية التي هي سيرورة الطبيعة والعالم، منطق التطور، وقد وجد بذلك مخرجاً. لقد عرف كيف يطيل حياته. لقد أعاده النهر، لقد انبجس من النهر دون أن يلحق به أي أذى، واستطاع أن يخلق في عنان السماء متخلصاً من الصقور القاتلة، قادراً على إبداع تغريد رائع. أما الرهبان الذين عرفوا حدود عقولهم وحدود حكمهم فقد أصبح العصفور بالنسبة إليهم تجلياً من تجليات إلههم الذي أصبح إنساناً، ومات

(٣٨) القصة التي ترجمها هنري كوريان، م.س، ص ١٥٧. لو انظر النص العربي لقصة حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهورودي، تحقيق وتعليق، أحمد أمين، ذخائر العرب ٨، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨ م، ص ٣٢، ٣٣، ٣٤. المترجم.

(٣٩) شاعر وكاتب إسباني، ذو نزعة إنسانية (١٥٢٨ - ١٥٩١ م). تمتاز مؤلفاته بإحساس عميق بالروحانية. المترجم.

(٤٠) لويس دوليون، في أسماء المسيح، مدريد، كاتيدرا، ١٩٨٦ م، ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

Luis de león, De los Nombres de Cristo, Madrid, Cítedra, 1986, p. 562 - 563.

وبعث حياً. وإنه لمن الجدير بالملاحظة أن هذا التعريف المقترح بصيغته الحالية للتنمية، وللتطور المستدام، وهو تعريف يمكن الدفاع عنه، يستبعد كل جري وراء هدف، وكل سعي إلى غاية، وعلى وجه الخصوص غاية السعادة، إذ ينبغي على كل إنسان حسب معياره الخاص، وفي اختلافه، أن يتعلم من أين يمر ليعيش. إن الحياة هي الأمر الجليل، أن يتمتع الإنسان بكامل إمكانات قدراته، وأن يعيش حياته ويظليها.

وفي العصر نفسه حرص مونتيني في محاولاته على إظهار أن "تنوع الأحداث الإنسانية" يحيل إلى الحركية الأصلية في الأشياء والعالم؛ إنها ذلك "الحراك الدائم التدفق"^(١١). إن مونتيني يقابل "الحكمة اللاإنسانية" للخبراء الذين يأفنون من أن يخصصوا تفكيرهم [٣٠] لمصاعب الواقع وإحراجاته^(١٢)، ولا يتطلعون إلا إلى حقيقة ما يمكن إدراكه، إلى التشابهات، يقابل كل ذلك، بما يسميه "ثقافة الجسد":

إنني أنا الذي لا يحسن إلا ثقافة العوام أكره تلك الحكمة اللاإنسانية التي تسعى إلى أن تجعل منا محقرين لثقافة الجسد وأعداء لها^(١٣).

إن مسلكنا العادي هو اتباع رغبات شهيتنا، إلى اليسار أو إلى اليمين أو إلى الأعلى، أو إلى تحت، حسبما يقودنا هوى الفرس... إننا لا نمضي برغبتنا، إننا نقاد كما تقاد الأشياء التي تطفو تارة بهدوء، وتارة بعنف حسبما يكون الماء هائجاً أو هادئاً^(١٤).

(١١) مونتيني، محاولات، طبعة بيرفيللي، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٨٨م، في الجسد، ٢، ١٧، ٦٥٤ - ٦٥٥ وفي التوبة، ٣، ٢، ٨٠٤ - ٨٠٥.

Montaigne, Essais, édition de Pierre Villey, Paris, PUF, 1988, De la présumption, II, 17, 654 - 655 et Du repentir, III, 2, 804 - 805.

(١٢) Apories = إحراجات: والإحراج هو في الفلسفة وضع رأيين متعارضين لكل منهما حجته في الإجابة عن مسألة بعينها. عن التهل المترجم.

(١٣) مونتيني، محاولات، في التجربة، De l'expérience، ٣، ١٣، ١١٠٦.

(١٤) مونتيني، محاولات، في عدم انسجام أعمالنا، De l'inconscience de nos actions، ٢، ١، ٣٣٣.

ليس هناك في نهاية الأمر أي وجود مستمر، لا لكيونتنا ولا لكيونة الأشياء. إننا، وإن حصافتنا وكل الأشياء الغاتية، لا نني نسيل ونسير. لذلك لا يمكن التثبت بالتأكد في أي منها، وإن الحاكم والمحكوم هما في حال تحول مستمر واهتزاز.^(١٥) إن مونتيني يتنصر هنا بوضوح للزائل الأساسي الذي هو أيضاً المبتذل الجسدي، والعارض، والجمعي، أي الإنسان. وإنه عندما يفعل ذلك يمارس "المحاولة" حقاً بوصفها تعرفاً على عدم الإنجاز، ونفياً مع عدم التأكد، ومع اللاحقية، ومع انعدام التوازن، ومع التفرع، يتنصر لكل هذا ضد فلسفة مجردة، ومطية، تدعي الشمول زوراً وبهتاناً. لذلك يقول لنا مونتيني:

أنا لا أصف الكيونة، وإنما أصف العبور

ما العبور؟ يجب مونتيني إنه الحياة على الأرض، وهو بذلك يتفق مع حدوس وقناعات بعض من أكبر حكماء الزمن الماضي ومتصوفيه الذين ينتمون إلى ثقافات متعددة. لأن الحياة التي هي "في ذاتها هدفه ومصيره" تنضوي تحت لواء فيض التاريخ والثقافات، وهي تبني الحرية.

لذلك ينبغي على كل إنسان أن "يشري الحياة" بمسؤولية وبقطة، وأن يحتفظ "بكل حيوية كيونته الفيزيائية"، وهي حيوية تتمثل في عدم شيخوخة الكيونة الفيزيائية كما يقول الحكيم زهوانغزي، وتدلل عليها سحنة نظرة، وبشرة "تشبه السماع الثلج".

ويرى ابن سينا الرأي نفسه عندما يروي أن للحكيم حي بن يقظان سحنة بهية من شدة البياض والشباب، لقد عرف كيف يحافظ - في آن معاً - على فتوته وطول عمره^(١٦): شيخ بهي قد أوغل في السن وأختت عليه السنون وهو في طراءة العز،

(١٥) مونتيني، محاولات، منافحة، ٢، ١٢، ٦٠١.

(١٦) هنري كوربان، ترجمة قصة حي بن يقظان، م.س، ص ١٥٤. لوانظر النص العربي، مصدر سابق،

لم يهن منه عظم ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب إلا رواء من يشيب. لأنه ليس هناك ثنائية بين المظهر والمخبر.

إذاً ، ما الذي ينبغي استفادته من الأستاذ "الإثراء الحياة" ؟ يجيب أحد مريدي الحكيم زهوانغزي : كنت أدور بالكنيسة على باب الأستاذ ، فماذا تريدونني أن أحفظ عنه ؟ ويعطي الفيلسوف فرانسوا جوليان François Jullien التأويل التالي :

إن قوله : أدور بالكنيسة يتضمن تضمناً مبدئياً عناية عن قرب ، محتشمة ، ولكنها صادقة ، إنها عناية تشارك في الحفاظ على الحياة وتجدها... إن في هذا إجابة في حالة عمل أو بالأحرى إجابة في حالة حراك إذا صح التعبير^(١٧).

(١٣١) وتتضح في المنظور نفسه ، وبطريقة غير منتظرة ، واحدة من آخر صفحات كتاب الحياة - وإن تسمية الكتاب بهذا الاسم ليست بداهة تسمية طارئة - للمتصوفة الإسبانية تيريز دافيال^(١٨) Thérèse d'Avial. فبينما كانت قد انتهت للتو من تأسيس أول أديرتها ، تجدها تقارن نفسها بكنيسة موضوعة خلف أحد الأبواب ، يستخدمها المرء كما يرغب بحركة لا متعجلة ولا كسولة^(١٩). وتدل الكنيسة ، لأنها ليست على الدوام لا ظاهرة ولا مخفية ، وليست في الخارج أو في الداخل ، تدل ، على أنه ليس التقدم نحو مثل أعلى هو ما ينبغي التطلع إليه هنا ، وإنما ينبغي ببساطة التطلع إلى أن يبقى المرء "تطورياً" ، في حالة تطور داخلي وخارجي ، بالتوافق مع إيقاع الحياة في الدير وفي الكنيسة الموجودة فيه ، إنه إيقاع يشبه حالة استنشاق عميق ، كأنه تناوب النهار والليل وتتابع الفصول : إنه حسب ما يقول مونتيني أيضاً يتمثل في عبارة : عندما أرقص ،

(١٧) فرانسوا جوليان ، م.س. ، ص ٣٠.

(١٨) تيريز دافيال (١٥١٥ - ١٥٨٢م) : قديسة كاثوليكية ، اشتهرت بأنها سيدة الروحانية المسيحية ، وقادت حركة إصلاحية في الأديرة. (المترجم)

(١٩) تيريز دافيال ، كتاب الحياة ، الفصل ٤٠ ، باريس ، سوي ، ص ٤٧٣.

Thérèse d'Avial, Le Livre de la Vie, chp. 40, Paris, Sui, p. 473.

أرقص ، وعندما أنام أنام^(٥٠). إن تيريز دافياال تجعل من كتابها ، من حياتها التي ضمنتها كلمات ثم كتبها ، تخلياً عن أحداث الحياة الطارئة لكي تجدد الجوهر الحيوي للحياة ، وهو ما تسميه "العناية بمديقة الروح". تلك الحياة الجديدة التي تكشف الواقع اللاعقلاني ، والمظلم ، الذي لا يمكن عقلنته ، تتجاوز كل رغبات الكائن البشري ، وكل رغباته التافهة في المجد والخلود. إن المتصوفة التي لم تكن تعيش لذاتها ، عاشت عمراً مديداً وأسست أديرة عديدة.

ويعبر نص عظيم آخر من النصوص الصينية القديمة اللاوزي^(٥١) Le Laozi عن هذه القناعة نفسها :

إن ما تتسع به السماء وتمتد به الأرض في البقاء

هو أنهما لا تمشان لذاتهما ؛

وهما بذلك قادرتان على الحياة الطويلة (٧)^(٥٢)

أن يعيش المرء "كما هو" أو "لذاته" يعني أن يتطلع إلى حياته الخاصة. في حين أن السماء والأرض اللتين لا تسعى لنفسيهما بالبقاء بقاء. العيش لا يأتمر بأمر الهدف. وهناك نص مسيحي يعبر عن الفكرة نفسها تقريباً ؛ وأعني هنا فقرة من إنجيل يوحنا^(٥٣) تتحدث عن الحياة الأبدية :

من يحب نفسه يهلكها ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية (إنجيل يوحنا ، الإصحاح ١٢ ، الآية ٢٥)^(٥٤).

(٥٠) مونتني ، محاولات ، م.س. ، في التجربة ، ٣ ، ١٣ ، ١١٠٧.

(٥١) مجموعة نصوص صينية جمعها زهوانغزي تحت اسم وهمي أسطوري هو (لاوزي). انظر تاريخ

الصين ، م.س. ، ص ٣٦. (المترجم)

(٥٢) اقتبس فرانسوا جوليان ، م.س. ، ص ٣٩.

(٥٣) بالفرنسية هو جان Jean. (المترجم)

(٥٤) انظر الترجمة العربية للكتاب المقدس ، إنجيل يوحنا ، ص ١٦٢. (المترجم)

إن خاصية الحياة ، شرط أن تكون حياة تطورية ، متناغمة ، هو أن تفلت من قياد نفسها. ليس لكي تتقدم نحو مثل أعلى وحيد هو المهم ، بل أن تبقى تطورية ، مفتوحة ، في حوار مع واقع يقف في وجهها. وإن الحكاية التوراتية عن موت موسى عند مدخل الأرض التي أعطيت لبني إسرائيل دالة بما لا مزيد عليه في هذا السياق. لما عصى موسى أمر الله ، وهو أمر غريب لأنه كان يتعلق بأن يكلم هو وأخوه هارون الصخرة أمام أعين بني إسرائيل لتعطي ماءها ، ولأنه لم يوبخ الشعب غير المؤمن ، عندما حدث ذلك ، أظهر ذلك النبي الذي عاش حياته كلها في مواجهة المقدس ، وقضاها بطولها يقود الشعب العبري عبر الصحراء نحو الأرض التي أعطيت لهم ، أظهر ، أنه لم يحسن أن يظل تطورياً ، طبعاً تماماً ، تشكله الحياة كما تريد. لذلك كان جزاؤه أن لا يدخل تلك الأرض ، لم يكن المهم هو التقدم وإنما التطور^(٥٥). ذلك هو منطق الشأن الحيوي وإستراتيجيته ، وهو منطق يتضمن الغياب والمجيء ، والإلهام والانتهاى على حد سواء. يقول نبي المسيحية الذي نفخ الله فيه من روحه^(٥٦) "أضع روحي بين يديك" ، وينتهي حياته في اللحظة نفسها الذي تنفجر فيها قوة حياته.

حينئذٍ ، ما الحياة "الأفضل" ؟ هل يقصد بها حياة السعادة ، حياة "سعيدة" ؟ وبمّ تتمثل "تلك الملذات التي لا يمكن التعبير عنها" ؟ ولكن البشر ما فتئوا منذ أفلاطون وأرسطو غير متفقين على محتوى السعادة. وإنه لمن الواضح أن تناغم [٣٢] التحول المتدرج الطبيعي الخاص للإنسان ، المتفق مع تحول العالم ، وهو تحول يعول عليه الفكر الصيني والحكم التقليدية ، ويتضوي تحت لواء منطق تطوري ، أي منطق تنقية وتحول ، ليس له إلا علاقة بسيطة مع البحث عن حالة وحيدة وثابتة أو الحجر عليها. إن منح

(٥٥) سفر الأعداد ، الإصحاح ٢٠ ، الآيات من ٨ - ١٢. لوانظر الترجمة العربية للكتاب المقدس ، العهد القديم ، سفر الأعداد ، ص ٢٢٦. المترجم.

(٥٦) في الأصل : إله النصارى الذي صار إنساناً. وهذا لا يتفق مع الرؤية الإسلامية للمسيح عليه السلام الذي يقول تعالى إنه نفخ فيه من روحه. وقد ترجمنا ما في الأصل بمقتضى المعتقد. المترجم.

السعادة أفضلية يفترض في الفكر الصيني إبراز تقييدها، التماسه، وهو بذلك يجعلها تنطوي عليها. إن لهدف "الحياة الفضلى" في الفلسفة الإغريقية علاقة بأكثر قدرات الإنسان سمواً، العقل. ولكن الحكم التقليدية أو بعض التحليلات الحديثة لبعض علماء الأنثروبولوجيا وبعض الفلاسفة أثبتت أن العقلانية الحقة هي تلك التي تعرف حدود الأنظمة، والانسجام والتجريد، وترك مجالاً للوجدان، ولانعدام التوازن، ولغير المتوقع. ويعترف أرسطو في كتابه الأخلاق إلى نيكوماك^(٥٧) بأن الحياة السعيدة بوصفها حياة تأملية هو حياة سامية كل السمو بالنسبة إلى الشرط الإنساني، وإن الإنسان لن يتمكن من بلوغها إلا بقياس قدرته على التأله! وإذا كان فرويد، في إثر أرسطو، يرى أن كل فعل وكل اختيار يسعى إلى غاية هي سعادته، سواء كان تجنب الألم أو الحصول على اللذة فإنه يعلم أيضاً أننا نأمل بسعادة تستمر في حين أننا لا نستطيع التلذذ إلا بالتعاكس، وهذا يعني بالتالي أننا نتلذذ عرضياً. ألم يبرع الشاعر غوته Goethe في قول ذلك عندما قال:

كل شيء في العالم محتمل الحدوث

إلا توالي أيام السعادة^(٥٨)

لا يرغب المرء بالضرورة في "السعادة التي يتطلع إليها. هل البشر كلهم مهتمون حقاً بالسعادة، بسعادتهم الشخصية كما نريدنا أن نصدق تلك الإعلانات التي تغطي جدران مدتنا؟ ليست الإجابة عن السؤال بديهية كما قد يبدو ذلك.

إن الإيديولوجيا الغربية هي التي أقرت في الأذهان حتمية مفادها أن انتظار "السعادة" غاية تتمثل غالباً في سيطرة الكمية على النوعية، وفي سيطرة الغايات البعيدة والتغذية. مع أن الحكم الصوفية الغربية والشرقية تلتقي لتظهر أن ما يهم هو التطور الحر، الحيوي، وأن يكون المرء في طور واحد مع السيورة الجمعية للحياة

^(٥٧) *L'Éthique à Nicomaque*

^(٥٨) ومثله قول أبي العتاهية: تأتي المصائب حين تأتي جملة وأرى السرور يجيء في الفلوات.

والذات والعالم. إن نظافة المياه والهواء والأرض والنار واستمراريتها مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بصحة البشر واستمراريتهم. وإن مفهوم "الحب المطلق" عند المتصوفين الهنديين أو المسلمين أو النصراني، وهو مفهوم يركز على وجهة نظر تقوم على إنكار الذات، وعدم الاهتمام بالسعادة المستقبلية، ينضوي تحت لواء هذا المنظور.

إن ما يهم عند هؤلاء المتصوفة هو القدرة الخالصة على العطاء والحراك، وعلى التفاعلية المؤسسة على السابق الأصلي الذي صنع العالم والبشر، وهو ما سماه الفيلسوف المسيحي ستانيسلاس بريتون^(٥٩) Stanislas Breton "الحلولية السامية" في كتابه *مرآة الكون الحية - منطق عمل في الفلسفة*^(٦٠). يبدل الإنسان مجهوداته الحيوية في وسط أو في فضاء هو العالم، وهو عالم يلزمه أو يشبهه، لأنه، شأنه شأن العالم، مخلوق إلهي؛ إن الحب المطلق هو مفهوم توافقي.

إن المتصوفة عبروا، على وجه العموم، تعبيراً شاعرياً عن اهتمامهم بالوسط الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجودنا نفسه؛ فالكائن الصوفي لا ينفصل عن أي كينونة، طبيعية كانت أو ثقافية، سواء كانت عشب حقول أو فضلة بائسة. ذلك هو البعد الذي يمكن أن نصفه بأنه شرعة صوفية خالصة، ذلك الاهتمام بكل كينونة لأننا موجودون في العالم، ونجد فيه المبدأ الحيوي للحياة. لذلك نجد عدداً من النصوص الدينية نكتفي بذكر بعضها مثل نصوص الفيدا Védas، وأشعار ابن عربي، ونشيد المخلوقات لغرانسوا داسيز François d'Assise أو أيضاً النشيد الروحي لجان دولاكروا Jean de la Croix، وأيضاً بعض الحكم البوذية، تعبر ببراعة عن هذه الشرعة. إن التعارض الغربي المحض بين الجسد والعقل، وبين الطبيعة والثقافة موضع الشك. إن التطور الحيوي الذي تجري المراهنة عليه هنا لن يشكل بعد اليوم "أسطورة خالصة من المركزية الاجتماعية الغربية"، وهي مركزية اجتماعية يندد بها - وهو محق في ذلك - إدغار موران Edgar Morin.

(٥٩) فيلسوف ولاهوتي فرنسي (١٩١٢ - ٢٠٠٥م)، يعد ممثلاً رئيساً للفلسفة المسيحية في فرنسا. (المترجم)

(٦٠) ستانيسلاس بريتون، *مرآة الكون الحية، منطق عمل في الفلسفة*، باريس، سيرف، ٢٠٠٦م.

Stanislas Breton, *Le vivant miroir de l'univers - logique d'un travail de philosophie*, Paris, Cerf, 2006.

إن القبول بما هو متعدد ومعقد في الحياة، وبالحياة بوصفها حراكاً، وبالحياة المتحركة، وهو ما كان وما هو اليوم حسبما رأينا هدف دعاة الإنسانية وحكماء (٣٣) مختلف التقاليد الثقافية التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين، ونشأت في أمكنة مختلفة وفي أزمنة مختلفة من أزمنة التاريخ، كل ذلك، يتخذ اليوم طابعاً مستعجلاً. والمقصود اليوم هو الإجابة عن ذلك التساؤل المضطرب الذي هو حسب حكاية أسطورية هندية أول مولود للطبيعة، وملازم للكائن البشري، وشرط حرته وتطوره الحيوي.

٣- خيبة أمل العالم

III. Le désenchantement du monde

إن العالم بوصفه فضاء للمعنى الممكن، وإمكانية ضخمة من الموارد لا يسوح بأسراره إلا في إطار الاستخدام، أي نوع من أنواع الاستخدام أو عدم الاستخدام الذي يطاله. وإن مما يجدر ذكره أن الفلسفة والنقود ولدا في آن معاً تقريباً وفي الأمكنة نفسها، في القرن السادس قبل الميلاد، بلاد اليونان القديمة نتيجة اتفاق عُقد بين بعض المدن الأيونية، منها مليت وإيفيس^(٦١) Milet et Ephèse ومملكة ليدي Lydie لابتداع وسيلة تسديد تستخدم في الدول كلها^(٦٢). هناك بالتحديد أعد طاليس المليتي^(٦٣) Thalés de Milet، وهو تاجر نيه وثري، تأمله الفلسفي. وبعد حين أصبحت أثينا عاصمة الفكر، ومركزاً سياسياً واقتصادياً وعلمياً وفنياً بفضل ازدهارها التجاري بين

(٦١) مدينتان تقعان اليوم في تركيا. [المترجم]

(٦٢) قارن بـ ميشيل أماندري، "أصل النقود وتطورها في ليدي وعند الفرس في القرن السادس قبل الميلاد" في المال، امتلاكه أو عدم امتلاكه؟، ملتقى مواهيد بلوا Blois، ٢٠٠٦م.

Cf. Michel Amandry, "Origine et évolution de la monnaie en Lydie et chez les Perses au 6^{ème} siècle avant Jésus - Christ", dans l'argent, en avoir ou pas? Colloque des Rendez - vous de Boils, 2006.

(٦٣) طاليس من مليت (٦٣٥ ق.م. - ٥٤٣ ق.م.). يعرف أيضاً بطاليس المليتي، أحد فلاسفة الإغريق قبل سقراط، وواحد من حكماء الإغريق السبعة، يعتبره العديد الفيلسوف الأول في الثقافة اليونانية وأبا العلوم. عاش طاليس في مدينة مليت في أيونيا، غرب تركيا. [المترجم]

٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م تقريباً. وعندما زالت الإمبراطورية الهلنستية غابت شمس العلم الإغريقي بزوالها^(٦٤). وحصل الأمر نفسه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية إبان بداية القرون الوسطى في الغرب؛ إذ لم تتابع الأفكار حياتها إلا في بعض الأماكن، وبفضل بعض البشر. وفي العصر نفسه، القرنان الرابع والخامس الميلاديان، إبان حكم سلالة غوينا Gupta التي وجدت شمال الهند كله، شهدت الحضارة الهندية التقليدية ذروة تقدمها في العلوم والآداب والفنون. وما ذكرناه ليس إلا غيض من فيض أمثلة كثيرة. ويبدو بجلاء من تاريخ مختلف الحضارات أن القوة الاقتصادية وازدهار الفكر، في أي مكان وفي كل الأزمنة، وبالأمر كاليوم، متلازمان. وبالتالي، إنه لمن المنطقي أن تقود الأحداث الإشكالية المعاصرة المرتبطة "بعاصفة" تطور الأعمال الدولية، والمعتقد الجديد في قانون واحد للعالم يسمونه العولمة، المرتبطة أيضاً ببعض إخراجات التقدم العلمي والتقني، تقود، الإنسان إلى إعادة صياغة تساؤلات تقليدية تنصب على العالم، وعلى موقعه في العالم، وعلى التأثير المتبادل بين الظواهر الطبيعية والمجتمعات، وعلى الحرية، وعلى التقدم.

وفي القرن السابع الميلادي كانت إسبانيا القوطية الغربية تعتقد بأن مصائبها نتيجة آثامها. في حين أنه كان هناك عالمان، ملك ومطران، من أتباع المفكرين الإغريق واللاتينيين، انتبها إلى أن شعبهما لا يمكن أن يعد الظواهر الطبيعية المقلقة بوصفها تعلن عن عقوبات كارثية، فكتب الملك Sisebut قصيدة "فلكية" جعلها ملحقاً لبحث في الفيزياء عنوانه في طبيعة الأشياء De la nature des choses، وأوصى به لصديقه، الذي يدانيه علماً، المطران إيزودور الإشبيلي^(٦٥) Isidore de Séville. لقد كان ما يرمي إليه الملك بمساعدة المطران هو التالي: منع التعازيم المرعبة للسحرة والساحرات، وكل

(٦٤) دافيد كوساندي، من الغرب، نحو نظرية عامة للتقدم العلمي، باريس، فلاماريون، ٢٠٠٧م.

Cf. David Cosandey, *Le Secret de l'Occident. Vers une théorie générale du progrès scientifique*, Paris, Flammarion, 2007.

(٦٥) باريس، معهد الدراسات الأوغسطينية، ٢٠٠٢م.

نبوءات المصائب المتعلقة بالخسوفات المتتالية للقمر التي حدثت للتو في مملكته ، منعها ، من أن ترهب عقول مواطنيه حتى إنها تمنعهم من متابعة نشاطاتهم وتقودهم إلى التمرد. إن التخطيط للمستقبل والتطور كانا منذ زمن محط اهتمام رئيسي لرجال السلطة ، سياسيين كانوا أو دينيين. وبعد أن ذكر الملك المهمات التي تقع على عاتقه وترهقه لإحلال السلام ، وهي التشريعات والحرص على الحدود على وجه الخصوص ، أورد وصفاً دقيقاً (٣٤) وعلمياً للخسوفات. لقد كان يثق بالمعرفة ، ويأخذ في الحسبان محدوديتها ليطمئن مواطنيه ، ليحفز ثموهم الثقافي والاقتصادي في آن معاً. وقد كان على المواطنين ، شأنهم شأن أميرهم ، أن يتابعوا نشاطاتهم الخاصة سواء كانوا مزارعين أو رعاة أو صيادين ، أو حرفيين ... إلخ. من أجل خير المملكة وازدهارها. تلك كانت الطريقة التي أرسى بها منذئذ ضرب من خيبة أمل العالم. لم يكن بالإمكان ترك الرؤية الكارثية المرتبطة بمفهوم ميتافيزيقي للطبيعة ، تركه ، يعرقل النمو الطبيعي للبلد. كان ذلك في العصر الذي سُمي عصر "النهضة" مع تدفق المعارف الجديدة القادمة من الشرق ، مع تقدم تنقل البشر والسلع ، ومع التوطد المتزامن للأقطاب السياسية والثقافية المختلفة ، ومع التشكيك ، وإن كان بحذر ، بالمعتقدات القائمة ، ومع اكتشاف أراض جديدة وبشر جدد ، حتى أن الله والطبيعة والحقيقة والإنسان أصبحوا مشكلات ، بل جُعِلوا مشكلة. وأوليت التجربة والموضوعية من الآن فصاعداً أهمية أساسية ، ولم يعد هناك إله هو في أصل أي حقيقة. وبذلك تجرأ في عام ١٤٨٢م العالم الإنسي جيوفاني بيكو دلا ميراندولا^(٦٦) Giovanni pico della Mirandola في كتابه الرائع المعنون: خطاب في كرامة الإنسان ، تجرأ ، على أن ينسب إلى الله خالق العالم ، الرغبة في أن يكون هناك "أحد لكي يُعجب بالسبب الذي كان وراء مثل ذلك الخلق ، ولكي يحب جماله ولكي يفتن بعظمته" ، ينسب إليه ما يلي :

(٦٦) ذكرت المؤلف اسمها الفرنسي Pic de la Mirandola - بيكو دولا ميراندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤م) فيلسوف ولاهوتي إيطالي ذو نزعة إنسانية. وعنوان كتابه : Discours de la dignité de l'homme (1486) للترجم.

لم أمنحك مكاناً محدداً، ولا سحنة خاصة، ولا هبة تخصك وحدك، يا آدم، لكي يكون لك مكانك وسحتك وهبتك التي تريد، ينبغي أن تكسيها بنفسك وأن تأخذها غالباً. تحتوي الطبيعة على أنواع أخرى من المخلوقات تسير على قوانين أنا واضعها. ولكنك أنت، يا من لا يحدك حد، تحدد نفسك بنفسك عبر حرية الاختيار التي أوكلت لك إليها. لقد وضعتك في مركز العالم لكي تحسن تأمل ما يحتويه العالم من حولك. لم أجعلك لا أرضياً ولا سماوياً، ولا فانياً ولا خالداً لكي تضع بحرية اللمسات الأخيرة على شكلك على طريقة رسام أو نحّات لأنك سيد نفسك. سيمكنك أن تتحول إلى أشكال دنيا، كأشكال الحيوانات، أو أن تتجدد فتبلغ الأشكال السامية البديعة.

ما الذي يريد العالم ذو النزعة الإنسانية أن يدلنا عليه هنا؟ إننا نجده، وهو يسبح سمة دينية على حكايته، يقلب النص المقدس بأن يقر للإنسان بحرية مطلقة، فقد جعل آدم خالق نفسه عبر خالق كل شيء، وهو نفسه مصدر القوانين التي تخصه. لا تمنعه أي سلطة أو أي قوة عليا من أن يندفع وراء الصفات الإلهية التي هي بلا شك أن يكون عالياً من جهة وقديراً من جهة أخرى. إن كرامة الإنسان تكمن في أنه لا يوجد فيما يخصه شيء نهائي، وأن وجوده مرتبط بمراقبته العالم ويعمله، يستطيع وهو يراقب معنى الكون وموارده "أن يضع بحرية اللمسة الأخيرة على شكله". يمكن أن يكون لطريقة استخدامه للعالم نتائج متعارضة: يمكن أن يأخذه إلى "أشكال سامية، سماوية" أو إلى "أشكال دنيا كأشكال الحيوانات"، أي إلى الغريزة والحتمية. إن الفضيلة والفن اللذين هما من سمات الإنسان، واللذين لا يخضعان لا للحساب ولا للقياس تُكسبان، والحالة هذه، الإنسان على الدوام ميزة التقدم بعيداً في إنجاز شكله الخاص به. إن ما يهم هو المستقبل، هو الصيرورة، هو الانفتاح. إن محرك التاريخ وتطور الأشكال هو الحرية بالتأكيد، ولكنه أيضاً القلق الذي يرافقها بالضرورة: "سيمكنك أن تتحول...". نلاحظ، ويبدو لنا أن هذا جوهرى، أنه إذا كان آدم الذي يخاطبه الله بضمير المفرد "أنت" مدعواً إلى أن يضع بحرية اللمسة الأخيرة على شكله الخاص به،

المفرد، فإنه أيضاً ترك له خيار تعاقبي بالولوج إما إلى أشكال دنيا وإما إلى أشكال سامية بالجمع، كما لو أن الله يعرب عن رضا عن الواقع المتعدد لانتماءات آدم بوصفه كائناً بشرياً. إن الرسام [٣٥] والنحات هما في الواقع مبتدعا أشكال، تتجدد على الدوام، وتجدد على الدوام، متعددة، لا يمكن التكهّن بها، مستبعدة الحدوث. حيثنؤ فتحت النهضة الأبواب على مصراعيها أمام ازدهار العلم.

في بداية القرن السابع عشر الميلادي كان عالم الفيزياء غاليلي Gallilée هو الذي خيب بامتياز أمل العالم بفضل ملاحظاته وحساباته. ففي كتابه حوار حول نظامي العالم^(٦٧)، وهو كتاب أحرّق في روما عام ١٦٣٣م أورد على لسان ممثليه في مواجهة القدماء: الكون مكتوب بلغة الرياضيات، وأورد على لسانهم أيضاً: إنه لمن النبيل والرائع للأرض أن تكون مسرحاً للتغيير. ليس هناك على ظهر البسيطة ما هو عصي على التغيير، وليس النبل في الثبات والتفرد. لم يعد هناك تمييز بين السماء والأرض. ليس لله مكان، والإنسان يعيش في وسط النجوم. ويطرح غاليلي الشروط الأونطولوجية لتساوي الأحياء: كل شيء طبيعي أو ثقافي يمكن أن يعالج ويفسر حسب المبادئ الرياضية. وفي عام ١٦٣٧م التزم ديكارت Descartes جانب الحذر وهو يعالج ظواهر الثلج والبرّد والرعد وقوس قزح، ويرفّقها بخطاب عن المنهج لحسن قيادة عقله، والبحث عن الحقيقة في العلوم، بسبب المحاكمة التي كانت تعقد حينئذٍ لغاليلي، فقال إنه يود على وجه الخصوص أن يضع عقله وأناة المدركة في خدمة القوة البشرية، ويسهم بذلك عبر "العقل" بجعل الحياة على الأرض أطول وأكثر أمناً. وكان حكمته الماثورة الأولى: لا ينبغي ألّبتة تقبّل أي شيء على أنه صحيح إلا إذا عرفت حقاً أنه كذلك.

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أراد عالم الرياضيات والمختص بوصف الكون بيدرو ميكسيا Pedro Mexia الذي كان يسكن في مدينة إشبيلية

أن يعرض في كتابه الرائع دروساً متنوعة^(٦٨)، الذي ترجم إلى كل اللغات الأوربية، الحاصل الكلي لمعارف عصره. وتشمل النشاط الأساسي لمكسيا في وصف الأرض والبحار والرياح لكي يسمح للبحارة ببلوغ القارة الأمريكية في أحسن الشروط الممكنة. يقارن نفسه في كتابه بالنحلة التي تحني الرحيق وتصنع عسلها، إنه يحمل كل المعارف لكي يستطيع عند الاقتضاء الإعلان عن توصية أو حكم. وبعد حين في عام ١٧٠٤م تحدى الإنجليزي جوناثان سويفت^(٦٩) Jonathan Swift ديكرات عندما أورد^(٧٠): سرداً كاملاً وحقيقياً للمعركة التي دارت رحاها يوم الجمعة الماضي بين كتب القدماء وكتب المحدثين في مكتبة القديس جيمس، ورفض الخضوع بالبداهة العمياء "للصور الواضحة والمميزة". لقد بنى سويفت إرث كل الكتب مهما كان نوعها، كما بنى تأسيس فضاء من الفكر والنقاش بين اليقين والخطأ كما هي حالة يحمل المعارف الإنسانية. ألا يمكن للفكر الديكراتي أن يكون في واقع الأمر عرضة لخطر صورة تسير في خط مستقيم خالص، وتقتصر تقدماً لا يمكن تحديد معالنه "لعقل" عاجز عن أن يأخذ في الحسبان واقع العالم والبشر؟ إن الوضع الإشكالي الحاصل، وهو وضع لا يمكن وقف مسيرته، يعبر بوضوح عن ضرورة حصول تمييز مفتوح على أحوال عدم اليقين؛ لا ينبغي ألبة لأي أنا أن تفقد صوابها معتقدة أنها "العقل". يشير سويفت إلى أهمية هذه التعددية في الشروط الداخلية والخارجية لأي شكل من أشكال التطور.

(٦٨) *Diverses Leçons*.

(٦٩) جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥م): أديب وسياسي إنكليزي - إيرلندي، اشتهر بمؤلفاته الساخرة المتقدمة لعيوب المجتمع البريطاني في أيامه وللسلطة البريطانية في إيرلندا. أهم مؤلفاته وأشهرها "رحلات جلفر" أو غوليفر الذي نشره عام ١٧٢٦م في أربعة كتب نصف أربع رحلات خيالية إلى بلدان تائية غريبة تمثل كل واحدة منها حيثة للمجتمع البريطاني. ومن مؤلفاته المشهورة الأخرى مؤلف اقتبست منه مؤلفه الكتاب نصاً هو كتاب: حرب الكتب *Battle of the Books* ١٧٠٤م. المترجم

(٧٠) في كتابه حرب الكتب المذكور في الحاشية السابقة. المترجم

وفي القرن العشرين ترافق التطور الرائع والحقارق للعلوم والتقنيات بقدره باهرة على الاختراع وتطوير الحياة والقدرات التي هي في كل يوم أكثر ضخامة على التدمير والموت. تزداد المعرفة والجهل. والتقنية تسمح بالأسوأ أو بالأفضل. والعقل يدعي أنه أداة، ويزعم أنه إلهي المصدر، إنه يبدد شمل كل المتناقضات وكل الشكوك. وتوضح الفيلسوفة حنة أرنت^(٧١) Hannah Arendt بدقة في: إيشمان في القدس - تقرير عن تفاهة الشر^(٧٢) كيف يمكن لذلك العقل الأداة والتقني الذي يفرض هنا إلى إبادة النازيين لليهود، كيف يمكنه عندما يفصل نفسه عن العالم فصلاً كلياً، وينعزل عنه أن يؤدي إلى ظهور العقل الذي يعد نفسه مالك العالم، ويرفض اقتسام الأرض، وأن يأخذ في الحسبان تعددية انتماءات البشر الذين يسكنونها ويقتسمون بالطبع مواردها الطبيعية. [٣٦] وإن حكم الفيلسوفة لا يقبل النقض عندما تتوجه بالحديث إلى المتهم إيشمان:

لأنك ناصرت ونفذت سياسة تتمثل في رفض اقتسام الأرض مع الشعب اليهودي وعدد من الشعوب من أمم أخرى، كما لو أنك ورؤساءك تملكون حق تقرير من ينبغي أن يسكن هذا الكوكب ومن لا ينبغي له ذلك. إننا نقدر أن أي أحد، كاتنا بشرياً كان أو غيره، لا يرغب في اقتسام الكوكب معك. لهذا السبب، ولهذا السبب وحده ينبغي أن يكون جزاؤك جبل المشنقة.

إن تطور العقل التقني وحده، وإلغاء أي تبعية وتفاعلية بين الطبيعة والثقافة، أي علاقة مع التاريخ، وبالتالي رفض أن تؤخذ في الحسبان أي أنماط أخرى من العقلانية، يفرضي إلى اتخاذ قرارات دكتاتورية وإجرامية. إن حنة أرنت تتحدث باسم إنسانية "دنيوية". هنا يترأى بوضوح خطر الدكتاتورية في حكومة عالمية قائمة على عقلانية تقنية خالصة، ترفض أن تأخذ في الحسبان الطبيعة المعقدة لانسجام الإنسان والعالم، وتعتمد الانتماءات والثقافات وكل الفوارق الطفيفة التي تنتج عنها. تلك

(٧١) حنة أرنت (١٩٠٦ - ١٩٧٥م) منظرة سياسية وباحثة يهودية من أصل ألماني. (الترجمة)

(٧٢) Eichmann à Jérusalem. Rapport sur la banalité du mal

الحكومة تجعل لنفسها حكماً إلهي المصدر. وتظل الفيلسوفة على الرغم من ذلك واثقة عندما تعلن في كتابها أزمة الثقافة^(٧٣) : بما أن أسور الطبيعة أبدية الوجود فإنها غير معرضة لخطر التجاهل أو النسيان. ولكي تبرز "تجارة الإنسان مع الطبيعة ، تلك التجارة التي هي الثقافة" تختار الفيلسوفة الاستشهاد بفكرة لأرسطو من كتابه بحث في الروح^(٧٤) : إن الكينونة بالنسبة إلى المخلوقات الحية هي الحياة^(٧٥) لقد أعطانا التاريخ مع النازية درساً ناجحاً ، متطرفاً ومريعاً. إن التنمية هي في جانب كون العالم والحياة مركبين ، وفي جانب آخر انتقال البشر والمعارف. إنها تبع لا ينضب من التطور. تلك هي واحدة من النتائج التي انتهى إليها الكتاب التاريخي المهم المخصص لأمكنة المعرفة ، بإشراف كريستيان جاكوب^(٧٦) Christian Jacob : لم تكن الإمبراطوريات التي انحصرت في جنس واحد تنجح في تحقيق ازدهار العلوم والتقنيات والأفكار على الدوام : ينبغي لكل حيوية في التجديد أن تنتظم حول عدد من مراكز الاستقطاب التي تتنافس ويخصب بعضها بعضاً في رحاب القضاء نفسه.

أليس رفض اقتسام العالم ، رفض اقتسام روح العالم وموارده هو ما يشير إليه بالتحديد مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (CNUCED) في تقريره عن "البلدان الأقل تقدماً" المنشور في السابع عشر من يوليو تموز ٢٠٠٨م؟ لقد تأكد لدى ذلك المؤتمر إخفاق التنمية في خمسين دولة هي أكثر دول الكوكب فقراً ، غالبتها تقع في إفريقيا ، وأغلبها من كبار الدول المنتجة للبتروول والمعادن ، ولكن هذا لا ينعكس على وسطي نموها المعلن بنسبة ٦,٧٪. وإن تزايد عمليات تصدير المواد الأولية النادرة لا يسمح في واقع الأمر إلا بإثراء شريحة ضيقة جداً من شرائح المجتمع. أما غالبية الشعب

(٧٣) *La Crise de la culture*, traduction française P. Lévy, Gallimard, 1972, 1989

(٧٤) *Traité de l'âme* (٧٤)

(٧٥) حنة أرنت ، أزمة الثقافة ، باريس ، غاليمار - فوليو ، ١٩٧٢م.

Hannah Arendt, *La Crise de la culture*, Paris, Gallimard - Folio, 1972.

(٧٦) كريستيان جاكوب (إشراف) ، أمكنة المعرفة ، مج ١ ، فضاءات ومجموعات ، باريس ، ألبن ميشيل ، ٢٠٠٧م.
Christian Jacob (dir.), *Liens de savoir, 1.1, Espaces et communautés*, Paris, Albin Michel, 2007.

التي تعيش من عوائل الزراعة فإنها تجد نفسها محرومة من تلك العوائد. كما أن نسبة تزايد السكان المرتفعة جداً تجعل مقاومة عدم المساواة أمراً في غاية الصعوبة. أما مساعدات التنمية فينبغي من الآن فصاعداً حسب مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية أن تتمثل في بناء البنية التحتية من أجل ناتج وطني^{٧٧}، ولا ينبغي أن تنصب على المستشفيات والمدارس فقط. إن ما ينبغي إرساء أسسه هو في واقع الأمر إدارة أفضل لتوزيع موارد العالم النادرة، وهي إدارة من المناسب أن تُرعى أسسها بمساعدة "البلاد الأقل تقدماً" على أن يكون لها سياسة أكثر اتساقاً في "تملك" عناصر الكون الأربعة.

حيثلو، هل يتبدل التمايز بين الطبيعة والثقافة، كما أزيل من قبل الفارق بين التاريخ الديوي والتاريخ المقدس؟ إن الفعل البشري، "تجارة الإنسان مع الطبيعة التي هي الثقافة" تنصب من الآن فصاعداً على الشأن الكوني كما يفصح عن ذلك ببراعة ميشيل سيريس^(٧٧) Michel Serres :

[٣٧] إننا نتحول من طبيعيين، منفعلين، أي من منغمسين سلبين في طبيعة تعني مجموع ما يولد وما سيولد بغض النظر عنا، نتحول، إلى طبيعيين فاعلين، مهندسين وعمال فاعلين في تلك الطبيعة. فيهما مضى قتال سينوزا: إن الله هو علة ذاته :

(٧٧) ميشيل سيريس، أومينسانس، باريس، لوبوميه، ٢٠٠١م. لو عنوان الكتاب مصطلح افترعه سيريس لوصف مستقبل الإنسان؛ كما أن مصطلح المراهقة *adolescence* يحدد مرحلة العبور من الطفولة إلى سن البلوغ، وكما أن مصطلح *luminescence* يعني اللحظة التي يصبح فيها جسد مظلم مضيئاً. وبعد أن أخذ المؤلف في الحسبان الاضطرابات الجذرية التي شهدتها البشرية في السنوات الخمسين الأخيرة بدأ في تحليل العلاقات الجديدة التي نشأت بين الإنسان وبيئات متنوعة هي: الموت، جسد الإنسان، الزراعة، شبكات الاتصال الجديدة. يحدتنا المؤلف من نتائج تلك التحولات، وعلى وجه الخصوص من الخطر المتمثل في تعاظم عدم المساواة بين الدول الغنية والفقيرة. ويختم كتابه بتناول مشيراً إلى أن الإنسان عرف على الدوام كيف يتكيف مع البيئات الجديدة، وأن الاختراعات العظيمة (الكتابة، الطباعة) حفزته ليثبت براعته وذكائه. وقد كتبت المؤلف المصطلح بالجمع: *Hominessences*. والصواب بالإنفراد كما ألتاء. المترجم.

لقد حدث بذاته لأنه لا يمكن التفكير بأن أي مخلوق أعلى منه. إننا نستغل هذه الصفة التي كانت فيما مضى إلهية لنقول: إننا اليوم السبب العملياتي لحياتنا.

بهذه الطريقة تحولت الإنسانية المجردة إلى نزعة ملموسة. لم يعد بالإمكان تمييز حياتنا من حياة العالم ومن عناصره الأربعة المكونة، وإن تحولنا المتدرج الطبيعي يفرض نفسه مقابلاً لتحول العالم المتدرج. إن ما هو كوني هو المتعدد والمتشابه، إنه اجتماع الأصل والطبيعة لكل الكائنات البشرية بتنوعاتها. ما يزال علينا أن نتم كل شيء، من التكاثر الطبيعي للأشياء حتى إنتاج الحاجات بالإسهام في قوى التعاون والتضامن. ولكن ليس في ذلك أي خطر؟ أي مكانة يحتلها من الآن فصاعداً الإنسان بين العناصر الأربعة المكونة للعالم، وأي مكان يخصصه الإنسان للماء والهواء والأرض والنار، كيف يمكن للعناصر الأربعة أن توجه قرارات سياسية، وعلى وجه الخصوص سياسة بيئية، سياسة "توافقية"؟، يلاحظ فرانسوا داغونيه^(٧٨) François Dagognet في هذا الصدد:

من الآن فصاعداً سننشئ الطبيعة ونوجددها. الفعل يحمل محل الكينونة. تصبح الطبيعة ما نبتدعه أكثر مما هي ما نكتشفه. العالم يمنح القوانين وجوداً مادياً. وينتج عن ذلك أجساد وصناعات لولاه لم يكن لها أن تكون ألبنة. إذا كان عالم البيولوجيا بعيد برجة الأحياء، فعالم الفيزياء لا يقل عنه في تغيير أكثر العناصر تعقيداً وأكثرها ثباتاً. المَحْيرُ يُبدع، ولا يتأمل^(٧٩).

أليس الإنسان غالباً هو ذلك الساحر المبتدئ الذي يحرك آليات يعجز عن مراقبتها والسيطرة عليها؟ ينبغي على التقدم الذي تم إحرازه أن يتجدد على الدوام، ولن يستطيع الفعل أن يحمل محل الكينونة، وحمل حركة الحياة. ويبدأ هانس جوناكس^(٨٠) Hans Jonas كتابه مبدأ المسؤولية كما يلي:

(٧٨) فيلسوف فرنسي على قيد الحياة، ولد عام ١٩٢٤م. المترجم

(٧٩) فرانسوا داغونيه، تأملات في فكرة الطبيعة، باريس، فران، ٢٠٠٠م.

François Dagognet, *Considérations sur l'idée de la nature*, Paris, wrin, 2000.

(٨٠) مؤرخ وفيلسوف ألماني (١٩٠٣ - ١٩٩٣م).

إن البروميثيوسية التي افلك عنها القيد كلياً، البروميثيوسية التي يخصصها العلم بقوى لم نشهد لها من قبل مثيلاً، ويدعمها الاقتصاد بنبضه الجامح تستدعي قانوناً أخلاقياً يمنع سلطة الإنسان عبر قيود تتم الموافقة عليها بحرية، بمنعها، من أن تصبح وبالاً عليه^(٨١).

إذا كان الإنسان يريد أن يعيش فإن عليه أن يعرف كيف يسجد من الجراءة والحرية اللتين صنعتا وتصنعان عظمته وكرامته. إن عليه أن يكون مثل إيكار Icare، أن يقترب من الشمس الملتهبة بحذر، وإلا فإنه يتعرض لخطر السقوط في أثناء طيرانه^(٨٢). وينبغي على برميثيوس، سارق النار، أن يتدع قانوناً أخلاقياً. وينبغي على الإنسان، على وجه السرعة، أن يجد في نفسه القوة الأخلاقية لأن يكبح جماح نفسه، أي أن يجتمع بأخيه الإنسان، وأن يتضامن معه. ولا يمكن لعناصر الكون الأربعة أن تكون بمثابة أوهام. وربما تكمن مسؤولية الإنسان في أنه قادر على دفع حيوية تفكير وفعل تفسح مجالاً واسعاً لتنوع الأنماط، ولفعل المقارنة، ولتاريخ مصغر يهتم بالدراسات التي تنصب على الحالة أكثر مما تنصب على إنشاء الأنماط الكونية. سيستطيع الإنسان الاستمرار في العيش عبر التملك المستول لعناصر الكون الأربعة.

(٨١) هانس جوناكس، مبدأ المسؤولية، باريس، سيرف، ١٩٩٢م، ص ١٣.

Hans Jonas, Le Principe Responsabilité, Paris, Cerf, 1992, p.13.

(٨٢) تتحدث المؤلف عن الأسطورة الإغريقية إيكار بن ديدال Icare fils de Dédale المهندس المعماري من جارية من جزيرة كريت اسمها نوباكتي Naupacté، وكان الابن والأب يحاولان العودة إلى أثينا مسقط رأس الأب، والهرب من مينوس Minos إله البر والبحر، ولما لم يكونا يستطيعان الهرب عبر البحر أو البر خطرت لديدال فكرة صنع جناحين مثل أجنحة العصفور وتثبيتها بالشمع والرصاص، ولكنه حذر ولده من الاقتراب من البحر بسبب الرطوبة ومن الشمس بسبب الحرارة، ولكن الولد وقد اعترته نشوة الطيران اقترب من الشمس فذاب الشمع وسقطت الأجنحة وسقط في البحر ومات. [المترجم]

٤ - الشريعة الأخلاقية والسياسة

IV. L'éthique environnementale et la politique

أشارت المسألة التي يعود تاريخ ظهورها إلى ثلاثين سنة خلت تقريباً تحت مسمى علم البيئة "الإيكولوجيا" إلى مسؤولية الجميع عن الأرض، التي لا ينحصر معناها في هذا السياق الضيق [٣٨] في المفهوم الجغرافي، ولكن في اندراجها ضمن الكون. إن القلق البيئي هو من الآن فصاعداً ما يستنفر البشر أفراداً وجماعات.

أما التفكير في ندرة الموارد الطبيعية فهو حديث؛ إذ لا يعود ذلك إلى أبعد من عام ١٩٧٠م عندما فكر بعض علماء الاقتصاد "أن العملية الاقتصادية ليست إلا امتداداً للتطور البيولوجي"^(٨٣). وبذلك نما قانون أخلاقي للبيئة انتظم في تيارين رئيسيين. الأول يعد أن هناك قيمة جوهرية لكل كائن حي. والثاني يتساق مع قانون أخلاقي يسمى المركزية البيئية، وهو قانون أخلاقي يقوم على الممارسات الجيدة والتصرفات الحسنة في الطبيعة؛ والمقصود هو إدماج النشاطات البشرية في البيئة مع الاستجابة لتعددية الأحياء. وتلتقي تلك الأخلاقيات البيئية مع التقاليد القديمة الرمزية والأخلاقية.

وتقوم الأفكار والآراء المتعلقة بقانون الأخلاق البيئي على ملاحظتين أساسيتين. فمن جانب نجد أن نفع ثروات الطبيعة (المواد الأولية، المنتجات الزراعية، ... إلخ) يظهر في طريقة استهلاكها، ويفرض المحافظة عليها. وآية ذلك أننا، وبسرعة، لن نستطيع الوصول إلى موارد الاستهلاك في غياب الخدمات البيئية التي تقدمها الطبيعة نفسها. ومن جهة أخرى يمكن للطبيعة أن تمثل منفعة جمالية أو أخلاقية أو روحية أو علمية للبشر، والرضا الذي توفره يتطلب حيثما أن تظل معافاة، ويكون لها والحالة هذه قيمة تتجاوز كل القيم المعروفة التي يبرهن على وجودها عقلياً. إذن لن يكون بالإمكان أن تخضع الطبيعة للرغبات البشرية المفضلة. كذلك عرف الفيلسوف وعالم السياسة

(٨٣) نذكر على سبيل المثال نيكولاس جيورجيسكو - روجان في محاولته، قانون القصور الحراري والعملية

الاقتصادية، ١٩٧١م.

Par exemple, Nicholas Georgescu - Roegen dans son essai, *The Entropy Law and the Economic Process*, 1971.

الأمريكي بريان ج. نورثون^(٨٤) Bryan G. Norton قانوناً أخلاقياً "بيئياً وحيوانياً" ليس مركزياً بشرياً، أو يقول أكثر صحة "ذو مركزية بشرية ضعيفة". وها نحن نقف هنا مظاهره الأساسية :

إن المركزية البشرية الضعيفة تيسر وجود موردين أخلاقيين ذوي أهمية فائقة لأنصار البيئة. أولهما أن مشرعي البيئة الأخلاقيين الذين يستطيعون تسويق صوابية رؤية للعالم تضع في مركز منظوره العلاقة الوثيقة بين النوع البشري والأنواع الحية الأخرى، يستطيعون في الحد نفسه أن يسوغوا صوابية تلك المواقف البشرية المثالية التي تتمثل في العيش المتناغم مع الطبيعة. يمكن لمثل تلك المثاليات منذئذ أن تستخدم حدوداً مرجعية لكي تخضع للنقد الأفضليات التي تميل إلى الارتباط بالطبيعة من منطلق الاستغلال. وثانيهما أن المركزية البشرية الضعيفة... مدفوعة إلى أن تأخذ في الحسبان المكانة التي تحتلها التجارب التي تكتسبها الكائنات البشرية عن عناصر الطبيعة وعن ارتباطها بآماكن محمية في سيرورة تشكل القيم.

حيثلو يفترض نورثون أنه :

أن الطبيعة تتعهد القيم عندما تتعهد مهمة تعليم الكائنات البشرية ما يتعلق بتلك القيم ، حتى إن أنصار البيئة يصلون إلى حد إظهار أنها تشكل وهي مطلعة على واقعة اتصال الكائنات البشرية مع الطبيعة^(٨٥).

(٨٤) بريان ج. نورثون: فيلسوف أمريكي معاصر، أستاذ الفلسفة في معهد جورجيا للتكنولوجيا. من مؤلفاته: الأطر اللغوية وعلم الوجود، *Linguistic Frameworks and Ontology* لماذا الحفاظ على تنوع طبيعي؟ *Why Preserve Natural Variety* ونحو الوحدة بين دهاء الحفاظ على البيئة، *Toward Unity among Environmentalists* وعمر كتاب: الحفاظ على الأنواع *Preservation of Species*. المترجم هـ-س. أنيسا (ناشر)، باريس، فران، ٢٠٠٧م، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

Bryan G. Norton, "L' éthique environnementale et l' anthropocentrisme faible", dans *Éthique de l' environnement*, H. - s. Afeissa (éd.), Paris, Prin, 2007, p. 235 - 236.

إن هذه القيمة الأخيرة التي يسميها نورثون "قيمة تحويلية" هي قيمة قادرة على إحداث تحول في الأفضليات بالتوافق مع مثال أكثر سموًا. إن للقيم الطبيعية تعددية جوهرية ، وتتحول من قيم مجتمعة الاستهلاك إلى [٣٩] قيم جمالية وروحية ، ... إلخ. ينبغي أن تكون مهمة نصير البيئة السعي إلى تحديد برنامج سياسة بيئية تسمح بأفضل اندماج للمجموعة الكاملة للقيم الطبيعية حسب اتجاه بوصف بأنه "نفعي". ذلك المثال يمكن أن تقر به من "الحياة" بالمعنى الذي يعتمد الفكر الصيني أو كبار متصوفي الأديان التوحيدية. كما دللنا على ذلك فيما سبق. ومن هنا تأتي ، كما يقول نورثون في كتابه الذي ظهر عام ٢٠٠٥م بعنوان : الديمومة. الفلسفة الإدارية لتبني النظام البيئي^(٨٧) في الإجابة عن الأسئلة التي طرحت في مؤتمر الأرض الذي انعقد في جوهانسبرغ عام ٢٠٠٢م ، أهمية تحديد شروط التنمية المستدامة وأهمية الدفاع عن "مبدأ ديمومة الأنظمة البيئية".

ويرى نورثون بالاتفاق مع أبرز منظري الاستدامة أنه ينبغي أن تطرح مشكلة الشروط الأخلاقية المقبولة للتنمية المستدامة في إطار نظرية العدالة بين الأجيال ، وأنه من المناسب تحديد الالتزامات المفروضة علينا تجاه أجيال المستقبل. ويرى نورثون أن هناك نموذجين رئيسيين للاستدامة ، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نصل بينهما. يرى النموذج الأول أن المقصود هو أن يُنقل من جيل إلى جيل مستوى الإمكانات نفسه ، وتشكيلة عادلة من الفرص ؛ لأن من المستحيل بلا شك أن نضيق أو نراقب نمط استخدام البيئة ، ونخزين الموارد. ينبغي أن يعترف كل جيل أنه ملزم أخلاقياً بأن يعوض الموارد التي استفدت منها التنمية والبيئة التي خربت ، يعوضها ، بطاقة إنتاج معادلة لما فعله. ويرى النموذج الثاني أنه من الموصى به إنشاء قائمة بكل "الموارد" ، أي بأي مظهر من مظاهر العالم الطبيعي الذي يمكن وصفه فيزيائياً ، سواء كانت موارد طبيعية أو آليات ينبغي أن نتركها لأجيال المستقبل ، ويكون من المناسب أن نلتزم باقتسامها معها.

يمكن على سبيل المثال أن تكون تلك "الموارد" كما يقول نورثون مخزونات كافية من الماء الصالح للشرب، لوغراندي كانيون^(٨٧) = المجرى الضخم، ونصيبهم من الديبسة الشمط^(٨٨)، وطبقة من الأوزون سليمة في القسم الأعلى من الغلاف الجوي، ويمكن أن تكون أيضاً مناظر طبيعية سليمة. تلك "المواد" ستكون حسب دراسة تصنيفية للمؤثرات "مالاً عاماً" لا يظالها مرور الزمن، كما لو أنها مؤشرات على سعادة مستقبلية، الشراب والطعام والتنفس، ... إلخ. إن مشكلة العدالة بين الأجيال إذا فهمت على هذا المثال يمكنها حينئذ أن تفضي إلى تحديد سمات النظام البيئي والمشهد اللذين هما جوهران من أجل أن نحفظ في المستقبل القيم التي نحكم بأنها مهمة محلياً.

إن نظرية نورثون تسهم في توضيح الرابط بين الطبيعة والزراعة، بين عناصر العالم الأربعة والإنسان، وهي، والحالة هذه، تسهم في رفض الفصل الجذري بين الطبيعة والزراعة. وإن استخدام الموارد الطبيعية يشير إلى المنافع المادية التي نستمدّها منها بقدر ما يشير إلى المتعة الجمالية أو العلمية المرتبطة بها. إن القيم الطبيعية هي قيم إنسانية. وإن تحديد "الموارد الطبيعية الأساسية" التي ينبغي حمايتها في اقتصاد محلي ينبغي إذن أن يأخذ في أعلى درجات الحسبان الممارسات الثقافية والمؤسسات؛ وإذا كانت الموارد الطبيعية هي التي تؤسس الهوية الثقافية فإننا نستطيع أيضاً التساؤل عما إذا كان سيُنظر إليها بوصفها موارد وقيماً بغض النظر عن التأويل والاستخدام الثقافي الذي تخضع له. إن مقارنة نورثون تميل إلى أن يترك لكل مجتمع محلي أمر تقرير ما يود نقله إلى أجيال المستقبل. إذن، إذا كان في الواقع يبدو أن الاحتفاظ بمغزى التنمية دون تحمل مغرم المشترك، بل المتفرد، المترافق باحترام الهويات، والفوارق والحدود، أمرٌ

(٨٧) Le Grand Canyon: حديقة وطنية تقع في الشمال الغربي لولاية أريزونا. وهو مجرى ضخم شقّه نهر كولورادو في السهل الذي يحمل الاسم نفسه. تأسست الحديقة عام ١٩٠٩ م، وتبلغ مساحتها ٤٩٢٧ متراً مربعاً. وصفته اليونيسكو عام ١٩٧٩ م إرثاً عالمياً للإنسانية. [المترجم]

(٨٨) Les ours grizzly: نوع من الديبسة، يعد بمثابة "مهندس بيئي" لدوره في المحافظة على البيئة، وحفظ التوازن فيها. [المترجم]

أساسي، ليس من المهم أن يكون هناك تعريف كوني للاستدامة؟ هل مقارنة نورثون قابلة للتطبيق عندما يتعلق الأمر بحمل المشكلات التي لا يمكن إرجاعها إلى مستوى محلي، وهي مشكلات تتطلب تعاوناً كبيراً بين المجتمعات، وبين البلاد، وبين القارات؟ لذلك نجد نورثون يمر مروراً سريعاً على مسألة الاحتباس [١٤٠] المناخي الذي يتطلب بلا شك تأملاً في مفهوم "المجتمع الدولي" بوصفه "مجتمعاً عولمياً".

احتسب برنامج الأمم المتحدة للتنمية في الثمانينيات مؤشراً للتنمية البشرية يتمم حساب الناتج الإجمالي المحلي^(٨٩) (PIB) بمعطيات اجتماعية. وقد تمت اليوم صياغة مقاييس بيئية، ولكن بجهود متفرقة؛ ليس هناك بعد "ناتج إجمالي بيولوجي" يقيس التواصل بين الإنتاج والبيئة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: هل ينبغي إيجاد منظمة عالمية للبيئة في مقابل منظمة التجارة العالمية؟ يلقي هذا الحوار بثقله بالطبع على القدرة التنافسية للشركات. وقد كان لمؤتمر الأرض في عام ٢٠٠٢م الفضل الكبير في تحديد هوية الأحداث الإشكالية، وتحديد أهداف كمية، ورسم مسارات لا يمكن الاستغناء عنها للتقدم. وكانت المرة الأولى التي أشير فيها بوضوح إلى دور الشركات في ذلك.

وفي عام ٢٠٠٢م قام الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان Kofi Annan بإطلاق النداء التالي: لا ينبغي أن يكون الماء في العالم سبباً في النزاعات فحسب، ولكنه ينبغي أن يكون محفزاً من أجل التعاون. وقد استقر لدى جان هورست كيبليير Jean Horst Keppler، مدير برنامج الطاقة في المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية (IFRI): أن البلدان الغنية بالمواد الأولية غالباً ما يكون الوضع فيها من وجهة نظر سياسية مفرطاً في الهشاشة. وإن ندرة الموارد، شأنها شأن غزارتها، يوجد نزعات أو بطيل أمدتها، مع ظهور المتفعين، وممارسات الفساد التي تعرض المجتمعات للخطر. لقد أحصت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OCDE) سبعة عشر نزاعاً عنيفاً بين عامي ١٩٩٠م وعام ٢٠٠٢م دارت بسبب النزاع على استغلال الموارد الطبيعية. والحربان الكبيرتان اليوم في

(٨٩) مؤشر اقتصادي يستخدم على نطاق واسع لقياس مستوى إنتاج بلد ما. ويُعرف بأنه القيمة الإجمالية للإنتاج الداخلي للثروات والخدمات في بلد ما. (للترجم)

العراق والسودان مرتبطان بمسألة الموارد الطبيعية، سواء تعلق الأمر بالبتروول أو بالأراضي الصالحة للزراعة. ومسألة المياه تطرح نفسها بقوة في النزاع في الضفة الغربية، وفي لبنان أيضاً، وفي الأردن وفي سورية حول نهر الأردن، وفي فيتنام، وفي الصين، وفي كمبوديا حول نهر الميكونغ Mekong. وتكمن المفارقة في أن المياه يمكن أن تقود إلى تعاون دولي مهما بلغت درجة هشاشته، فهناك على سبيل المثال اتفاقية حول المياه بين الولايات المتحدة وكندا، وتستطيع الهند وباكستان معاً معالجة مسألة المياه. ومجرى النيل تنقسمه عشر دول. إن ما هو سبب في التوترات هو أيضاً سبب في تعاون ضروري. وتتلقى برشلونة اليوم مياه شرب تأتي إليها على متن السفن من مدينة مرسيليا! وعندما طُلب من الخبراء الذين اجتمعوا في مدينة مونيخ في المؤتمر العالمي الثالث عشر للمياه بين الأول والرابع من سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٨م أن يذكروا مثلاً لنهر أو طبقة مياه جوفية عابر أو عابرة للحدود، تعالج مسألة اقتسامها معالجة واقعية ومتناغمة بين عدد من البلدان انتهى بهم الأمر إلى الحقيقة التالية: لا يوجد، ولكنهم أشاروا أيضاً إلى أن الموقعين على الاتفاقات التي تخص المياه العابرة للحدود يمكن أن يسمحوا، عبر تعاون ملموس، بتحسين علاقات دبلوماسية صعبة بين الجيران.

ألم نلاحظ مؤخراً أن البتروول والغاز الروسيين يشكلان سندا قوياً للسياسة الخارجية الروسية؟ والحال أن خط أنابيب الغاز الذي هو قيد الإنشاء، الخط الذي سيجر البتروول والغاز إلى أوروبا لمسافة حوالي ٣٠٠٠ كم يستقر في قسم كبير منه في قعر بحر البلطيق الذي ما زال قعره يعج بالألغام والمخلفات الكيميائية التي يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الثانية. هذا من جانب، ومن جانب آخر إن إنتاج الطاقة "الخضراء" البيوكاربورانت biocarburants، بسبب ما أشيع من نضوب النفط يمكن أن يسهم في تعريض الكوكب لخطر المجاعة؛ إنه تحد جديد مطروح في وجه الزراعة. لذلك عانت المكسيك في عام ٢٠٠٧م من انخفاض مخزونات الذرة التي تصدرها الولايات المتحدة الأمريكية، لأن هذه الأخيرة خصصت في عام ٢٠٠٦م ٥٧ مليار طن من الذرة لإنتاج الإيثانول الذي يفترض أن يحل محل البتروول. وفي الوقت نفسه، إن عوامل التعرية

في الأرض، ونضوب الماء العذب، وانتشار الفيروسات والحشرات، وتبدل العادات الغذائية، ... إلخ، كل ذلك يندب بالأسوأ. وعلى الرغم من ذلك يشير المختصون بالمسائل الزراعية بتناول إلى أنه [٤١] يمكن للبلدان النامية أن تحصل على زيادة وفيرة في الإنتاجية الزراعية. ينبغي أن يكون للزراعة دور في أن تبتدع في كل مكان مستقبلاً مستمراً هنا أيضاً يتعلق الأمر في أن نأخذ في الحسبان مجموعة كاملة من المخاطر الطبيعية والبشرية.

اعترف البنك الدولي في تقريره عن التنمية المنشور في أكتوبر ٢٠٠٧م أن ازدهار الزراعة الذي يفضي إلى انخفاض نسبة الفقر والجوع يرتبط بالاستثمارات العامة في البنية التحتية الريفية، مثل وسائل الري، والطرق والطاقة، واعترف البنك أيضاً بأن القائمين عليه كانوا قد نسوا الزراعة في سياستهم التي طبقوها منذ عشرين عاماً! إن الزراعة في دول الجنوب، وعلى وجه الخصوص في آسيا الجنوبية وأفريقيا الجنوبية ستكون واحداً من أكثر مجالات النشاط البشري تأثراً بالتغير المناخي الراهن. ولهذا السبب عادت الزراعة في غرة القرن الحادي والعشرين مشكلة رئيسية من مشكلات البشرية. وإنه لمن الدال في هذا السياق أن يتم تعيين عالم الاقتصاد الصيني، وصاحب المعرفة الواسعة بالتنمية الريفية لين إيفو Lin Yifu في فبراير "شباط" ٢٠٠٨م كبير اقتصادي البنك الدولي.

إذا كانت القيم الطبيعية هي أيضاً قيم إنسانية فإن فرضية الهولندي جيروين ديرفال Jeroen Derwall توسع فرضية نورثون اتساعاً يركز على الجانب الاقتصادي: فالشركات الناشطة في مجال الإدارة البيئية على وجه الخصوص استطاعت أن تحقق أداء مالياً هو أفضل، مما حققت شركات أخرى هي أقل اهتماماً بالإدارة البيئية، خصوصاً إذا نظرنا إلى ذلك الأداء المالي على المدى البعيد^(٩٠).

(٩٠) مقال ظهر في صحيفة "لوموند" الصادرة في ٢١ يناير كانون الثاني: ٢٠٠٨م.

Article paru dans Le Monde du 21 janvier 2008.

ويشجع جهاز مالي، ترعاه الأمم المتحدة يُسمى آلية التنمية النظيفة (MDP) بناء مصانع نظيفة في البلاد النامية. فشركة فيوليا Veolia على سبيل المثال نفذت ذلك في مصر في المصانع التي تعالج النفايات في مدينة الإسكندرية. وبذلك يمكن للمشركات أن تصبح جهات فاعلة في إصلاح البيئة، وإنه لمن المهم أن تشجع الحكومات على سلوك مثل هذه المسالك. وإن جاتياً كبيراً من المستقبل البيئي للكوكب يتقرر تبعاً للتحول الاقتصادي الصيني بفضل التغيرات في السياسة الصينية. وتبدو التكنولوجيا البيئية شيئاً قشياً بوصفها سوانح صناعية رائعة. إن وادي السيلكون^(٩١) Silicon Valley عندما يتركز اهتمامه على الطاقة الشمسية فإنه يأمل بذلك المحافظة لعدد كبير من السنوات القادمة على التفوق التكنولوجي على العالم. وبذلك تتجاوز العلاقات الجديدة بين البشر وعناصر الكون الأربعة الأساسية الخيال عبر إعادة تكييف البنى والسلوكيات حسب التعريف الواضح للأهداف. إن التجديد في مجال صيغ النمو الجديدة ينبغي أن يكون مسؤولية الجميع.

في عام ٢٠٠٦م، واستجابة لمبادرة مشتركة بين فرنسا والسويد على المضي قدماً في سياق بعض من تحديات نورثون، وعلى وجه الخصوص مفهوم "القيم الطبيعية" الذي جاء به. القيم الطبيعية التي هي أيضاً "قيم إنسانية". ولكن بحثاً عن حلول يمكن للمجتمع الدولي أن يطبقها، عكف فريق عمل دولي على جلاء مفهوم "المنفعة العامة العالمية"، وعلى تحديد ماهية "المنافع العامة العالمية"، وهي منافع أساسية للتنمية المستدامة من وجهة نظر محاربة الفقر، والمصلحة المشتركة لجميع بلدان الكوكب. ووقع الاختيار على ست مجالات ذات أولوية يحتوي كل منها على عدد من المنافع العامة: مقاومة الأمراض المعدية، مواجهة الاحتباس الحراري، الاستقرار المالي العالمي، النظام التجاري العالمي، السلام والأمن، وأخيراً المعرفة والبحث في المجالات

(٩١) يشير مصطلح وادي السيلكون إلى مركز استقطاب الصناعات المتقدمة الواقع في خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية. وحتى إن لم تكن المنطقة وادياً بالمعنى الحقيقي للكلمة فإن العبارة تشير مجازياً إلى مقر الصناعات التكنولوجية المتقدمة على وجه العموم. للمترجم.

السابقة كلها. والمقصود هو إيجاد آليات للإنتاج لا يقدمها السوق عضواً، على الأقل بالقدر الكافي. وشدد الفريق على الرابط بين تلك المنافع العامة العالمية والتنمية المستدامة، وتجنب صياغة توصيات بالغة الدقة ليُتخذ القرار على المستوى الدولي أو [٤٢] المحلي، وترافق ذلك بإطلاق مسألة الحافز السياسي الدولي الضروري لمواجهة التحديات الدولية الكبرى^(٩٢).

لقد تم الإعلان في فرنسا عن مبدأ اتخاذ الاحتياطات بخصوص البيئة في قانون بارنييه Barnier في الثاني من فبراير "شباط" ١٩٩٥ م بالصيغة التالية:

إذا أخذنا في الحسبان حالة المعارف العلمية والتقنية الراهنة فإن غياب الأمور المؤكدة لا ينبغي أن يؤخر تبني الإجراءات المللموسة المناسبة الرامية إلى تفادي خطر الأضرار الجسيمة التي لا يمكن تداركها على البيئة بتكلفة اقتصادية مقبولة.

نمارس من الآن فصاعداً ضغوطات كثيرة على الشركات، سواء تعلق الأمر بالقوانين الجديدة، وخصوصاً تلك التي أصبحت تعد اليوم قديمة، وأعني القوانين التي سُنّت في شهر مايو "أيار" من عام ٢٠٠١ م حول التنظيمات الاقتصادية الجديدة. أو بتعدد سجلات الاستثمارات الملتزمة اجتماعياً ومخصصاته. الاستثمارات الملتزمة أو التي تسمى "أخلاقية"، أو بالضغط الذي يمارسه المستهلكون أو المنظمات غير الحكومية (ONG).

تشير المادة الخامسة من الميثاق المتعلق بالبيئة، وهو ميثاق يعود إلى عام ٢٠٠٤ م، وأدرج في الدستور الفرنسي متخذاً المرتبة نفسها التي اتخذها مدخل دستور السابع والعشرين من أكتوبر "تشرين الأول" عام ١٩٤٦ م، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أعلن في السادس والعشرين من أغسطس "آب" ١٧٨٩ م:

(٩٢) تقرير فريق العمل الدولي حول المصالح العامة العالمية: حل المشكلات العالمية، التعاون الدولي في إطار المصلحة الوطنية، سنغافورة، ١٨ سبتمبر ٢٠٠٦ م. إدارة سياسات التنمية، تعاليم يوم الخميس، رقم ٦١، ٢١ سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٦ م.

عندما يمكن لحصول ضرر ما، وإن كان غير أكيد في حدود حالة المعارف العلمية الراهنة، أن يؤثر في البيئة تأثيراً خطيراً ولا يمكن إصلاحه فإن السلطات العامة تحرص تطبيقاً لمبدأ الاحتياط المسبق، وفي الأراضي التابعة لها، على اتخاذ إجراءات لتقدير المخاطر وتبني الوسائل المؤقتة والتي تتناسب مع الحالة لكي تمنع وقوع الضرر. ويأتي تدقيق الحالة في المادة السادسة:

ينبغي على السياسات العامة أن تشجع التنمية المستدامة. ولهذا الغرض، ينبغي عليها أن توفق بين حماية البيئة وإظهار أهميتها، وبين التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي. وبهذه الطريقة تم الإعلان عن أن مبدأ التنمية المستدامة هو بنية ضرورية. أما برونو ريبيلل Bruno Rebelle، المدير السابق لمنظمة غرينبيس فرنسا Greenpeace France فإنه يوجه بعنف:

لقد فهم عدد من المجتمعات في عام ٢٠٠٣م، منذ أن بدأ الإحساس بالمسؤولية يجد طريقه لدى الرأي العام أنها إذا لم تلتحق بركب التنمية المستدامة في طرق إنتاجها وفي إستراتيجية التواصل لديها فإنه تلقى بنفسها إلى التهلكة^(٩٣).

إن اجتماع الضدين يتفوق غالباً. إن "التواصل الأخضر" الذي يسميه الأمريكيون أيضاً "الغسل الأخضر" greenwashing الذي يستخدمه الأمريكيون عبر تورية مع مصطلح "brainwashing" = غسل الدماغ يمكن أن يوجه لأهداف تجارية محضة، مثل الإعلان عن العلامات التجارية والمنتجات التي يفترض أنها تسهم في التنمية المستدامة، ومن هنا جاء ارتفاع نسبة عدم الثقة في بعض الدعايات "الخضراء" في أذهان المستهلكين الذين وجدوا أنفسهم محصورين بين سندان الخوف من غلاء المواد الأولية ومطرقة الخوف من الاحتباس الحراري على سبيل المثال^(٩٤).

(٩٣) ذكرت ذلك صحيفة ليزيكو (الأصدقاء)، ١١ يونيو حزيران ٢٠٠٨م.

(٩٤) إن الدعايات التي تستخدم الحجة البيئية ارتفعت نسبتها بزيادة ثلاثة أضعاف في عام ٢٠٠٧م، حسبما جاء في دراسة أعدتها المكتب للتثيت من الدعاية.

[٤٣] ومهما يكن من أمر فإنه إذا كان دور النشاط البشري في التغير المناخي هو من الآن فصاعداً أمر لا يمكن إنكاره فإنه يبدو من الضروري أن تتمسك حكومات البلدان على الدوام بتطوير سياسات مشتركة. إن متطلبات التنمية المستدامة هي من الآن فصاعداً متطلبات "لا يمكن تجاهلها"، وإن كانت في بعض الأحيان يمكن أن تبدو مترافقة بخاطر التطرف، أو أن تستخدم أداة لهدف ما. ففي فبراير "شباط" ٢٠٠٨م قدمت الخامية كورين لوياج Corinne Lepage إلى وزير البيئة والطاقة والتنمية المستدامة والتخطيط العمراني، جان لويس بورلو Jean - Luis Borloo تقريراً حول الحكومة البيئية، وقد أوصت في ذلك التقرير بإيجاد جناح يُطلق عليها اسم "جنوح بيئي" و"حجز استعلاسي في المجال البيئي والصحي"، وإيجاد مسؤولية جزائية على رؤساء الشركات تتسع لتتال المتعهد الثانوي. وفي فرنسا أيضاً خصص المؤتمر الرابع بعد المئة لكتاب العدل الفرنسيين أعماله التي جرت بين ٤ و٧ مايو "أيار" ٢٠٠٨م لإشكالية التشريعات التي تشمل التنمية المستدامة. وفي الثاني والعشرين من يوليو "تموز" ٢٠٠٨م تبني البرلمان تبنياً نهائياً، القرار النهائي لمجلس النواب باعتماد مشروع قانون حول "المسؤولية البيئية" (LRE)، وهو قانون يعكس عدداً من التوجهات الأوروبية القديمة، ويوطد على وجه الخصوص في الحقوق الفرنسية مبدأ الملوث/الدافع بأن يجعل له محتوى واضحاً. يهدف هذا النص إلى تفادي الأضرار التي تلحق بالطبيعة ومحاولة إصلاحها، الأضرار التي يسببها موقع أو نشاط صناعي. تستطيع الجمعيات الإقليمية من الآن فصاعداً أن تكون جانب ادعاء مدني في حالة تلوث الإقليم الذي تنشط فيه. أما حالات تلوث البحر فإنها تخضع لعقوبات أكثر صرامة، إذ إنه من المتخصص عليه أن يعاقب قبطان السفينة المسؤول عن رمي النفايات السامة في البحر بدفع غرامة مقدارها ١٥ مليون يورو، مقابل مليون واحد بدفعه اليوم، وأن يعاقب أيضاً بعقوبة السجن لعشر سنوات. وهناك عدد من التوجهات الأوروبية التي أدرجت في هذا النص، وخصوصاً التوجهات المتعلقة بالهواء ويطبقه الأوزون، وبالوضع الأوروبي المتعلق بانبعاثات ثاني أكسيد الكربون.

لقد غصت مع دوامات الماء وصعدت مع تياراته ، ذلك ما قاله الرجل للحكيم كونفوشيوس الذي انبجس من مسقط الماء. "الغوص مع دوامات المياه" و"الصعود مع التيارات": والمقصود أن نعرف كيف نستخلص درساً عملياً من هذه الاستعارة. فالعالم هو تقريباً جسد بيولوجي ينمو طبيعياً وعضوياً ، وينبغي السهر على أن يتطور على طريقته المعقدة والمتنوعة دون أن نستنفد حيويته ، ويتم ذلك بمعرفة إدارة إعادة توزيع عادلة لحيويته على أعضائه كلها حتى أقصى أطرافه. إن ديمومة الحياة البشرية وحياة المياه والهواء والأرض والنار مرتبط بالإنبداع ، وبالقدرة على التعاون ، والتجديد ، وبالتصرف كما كان يتصرف البشر في "البداية" ، كما ترى حنة أرنت ، من أجل استخدام عادل ومتعقل ، بدون ضراوة ، ولا احتكار للماء والهواء والأرض والنار في العالم. تلك هي الاستراتيجية القديمة التي ينبغي أن نحياها من جديد.

لقد أبدى البروفيسور كزافييه روفيه Xavier Raufer من قسم علم الجريمة في جامعة باريس الثانية قلقه من التهديدات الخطيرة التي تلحق بالبيئة ، وهي تهديدات تسببت بها العولمة ، وعلى وجه الخصوص : تهريب المنوعات والصناعات الكيميائية غير القانونية ويسبب تهريب النفايات السامة^(٩٥) . ويشير برنار ماروا Bernard Marois ، البروفيسور في المدرسة التجارية العليا (HEC) إلى أن العولمة قد حققت حتى الآن حصيلة إيجابية. فالارتفاع المستمر للمنجزات الاقتصادية للكوكب سمح بأن يرتفع معدل حياة الإنسان من ٤٠ إلى ٦٥ عاماً ، وأن تنخفض نسبة الناس المحرومين من المياه الصالحة للشرب من ٦٥٪ إلى ٢٠٪ ، وأن تشهد في الوقت نفسه نسبة الأميين انخفاضاً مماثلاً من ٥٢٪ إلى ٢٦٪. ولكن العولمة عمقت عدم المساواة داخل كل دولة. وفي المقابل يبدو أن الفوارق بين الدول قد تقلصت. وتسعى العولمة إلى تشجيع توزيع الاختراعات الجديدة ، كما تشجع أيضاً توسيع الأسواق. أما جيفري د. ساش Jeffrey D. Sachs ، مدير معهد الأرض في جامعة كولومبيا فإنه يلح من المنظور نفسه على

(٩٥) صحيفة ليبيراميون ، ٧ أبريل "يسان" ٢٠٠٨م.

ضرورة تعاون كوني مهما كان صعب التحقيق، ومهما كانت مخاطره من أجل تشجيع التقنيات الجديدة "مثل الطاقة نظيفة"، واللقاح [٤٤] ضد حمى المستنقعات، أو الزراعات التي تقف في وجه التصحر" بوصفها فرصاً سانحة لحل المشكلات العالمية، "وعلى وجه الخصوص عدم التساوي الصارخ في المداخل، والأضرار الفادحة التي تلحق بالبيئة":

يمكن لجوانب التقدم الفعالة أن تحمل للبشرية منافع لا يمكن تخيلها. وبما للعصر الحماسي الذي يعيشه حينئذ العلماء أو المهندسون الذين عليهم مواجهة تحديات التنمية المستدامة^(٩٦)

حقاً إن التنمية تبدو في بداية القرن الحادي والعشرين هذه مغامرة متقلبة، ذات طبيعة اقتصادية توزيعية، وإنه لمن المناسب أن نمنحها بدون إكراه، وبحذر وتعقل، بداية ومساراً. وربما تمثل المشكلات التي اختارتنا الفرصة التي يتيحها القرن الحادي والعشرون. ولكي نختم نترك الكلمة، تحت نظرة الملاك الجديد لبول كلي، لعالم الاقتصاد الهندي أمارتيا سن Amartya Sen :

ينبغي على التنمية والبيئة أن تكونا متدعجتين، لا متناقضتين. إن التنمية في جوهرها هي مسار من المسؤولية، ويمكن لهذه السلطة أن تُستخدم للحفاظ على البيئة وإثرائها بدلاً من القضاء عليها^(٩٧).

كذلك يمكن للتنمية، لهذه البداية الجديدة، ألا تتجاهل الحياة، والألم، والفرح، وجودة الماء والهواء والأرض والنار، وجودة الوجود، ومحاسن التعاضد، وهبة الشهامة، ومعارف الثقافات وحكمها.

(٩٦) مجلة لينيكو، ١٨ و ٢٥ فبراير شباط ٢٠٠٨م.

(٩٧) نقل هذا القول الصحفي سرج كوفمان Serge Kaufman في صحيفة لوموند، الثلاثاء ١٣ فبراير شباط